محمد شكري

الخبز الحافي

سيرة ذاتية روائية

١٩٣٥ - ١٩٥٦

٩

كنا في مقهَى التشاطو. خسرت آخر فلس في لعبة «العيطة». عندما بدأنا اللعب كان صديقي الكبداني يربح وأنا أخسر. بقي هو الرابح وأنا الخاسر. بقيت عندي خمس وعشرون بسيطة حين قال لي:

ـ ما عندك حظ في هذا اليوم. توقف عن اللعب.

قلت له بجفاف:

ـ انصح نفسك. أنا أعرف ما أفعله بنفسي وبفلوسي.

كانت حوالي الثانية عشرة والنصف بعد الزوال حين سلف لي الكبداني خمس بسيطات. اشتريت ثلاث بسيطات من الكيف وطلبت شاياً أخضر ببسيطتين.

من خلال شباك السدة أرى السوق الكبير. أنه يوم الأحد. الساحة عامرة بالبائعين الجوالين والمتشردين والمتجولين الذين لا يشترون شيئاً. الريح تهب والسماء غائمة. المطاعم والمقاهي والمتاجر المغربية مقفلة. فوق أبواب بعضها رفعت الراية المغربية والراية السوداء. أصحاب بعض المقاهي الشعبية استغلوا هذا اليوم للقمار. عندما سألت في هذا الصباح التشاطو عن هذه المناسبة الوطنية قال لي بصوته الذي يخرج نصفه من فمه ونصفه من أنفه:

ـ أنه اليوم المشؤوم!

ـ ما معنَى اليوم المشؤوم؟

ـ ألا تعرف معناه؟

ـ لا.

ـ ٣٠ مارس (آذار) ١٩١٢ هو اليوم الذي عقدت فيه الحماية الفرنسية مع المغرب في عهد مولاي عبد الحفيظ. اليوم، ٣٠ مارس ١٩٥٢ تمر أربعون سنة على حماية فرنسا للمغرب. لهذا صار يعتبر ٣٠ مارس اليوم المشؤوم.

ـ واليوم ماذا نريد نحن المغاربة من الفرنسيين؟

ـ نريد منهم أن يخرجوا. اليوم تنتهي عقدة الحماية.

ـ هل نطالب أيضاً أن يخرج الاسبانيون؟

نظر إليّ نافد الصبر قائلاً:

ـ اسمع، ليس عندي وقت الآن للكلام الكثير في هذا الموضوع. اطلع إلى السدة واستقصِ هناك بعض الرفاق عن هذه الأشياء.

الكبداني كان قد ربح حوالي ثلاثمائة بسيطة عندما أعلن توقفه عن اللعب. قال له اللاعب الأول بغضب:

ـ أكمل معنا اللعب.

ـ وإذا لم أرد أن استمر في اللعب. هل أستمر معكم بالقوة؟

ـ نعم أكمل.

ـ أنا جائع. سأذهب لأتغدى.

إحتج الأشخاص الثلاثة تباعاً:

ـ كلنا جائعون، إلعب معنا.

ـ وإذا كنت لا تريد أن تكمل معنا اللعب فاقسم معنا ما ربحته لنا.

ـ نعم، افهم نفسك، هذا هو أحسن حل، إذا لم تكن راغباً في استمرار اللعب.

ضحك الكبداني هازئاً. أخذ من «السبسي» الذي عمرته له. قال الثالث:

ـ لن تكون النهاية بخير إذا لم تكمل معنا اللعب. لا بد أن تكمل معنا اللعب.

صاح التشاطو من أسفل المقهَى:

ـ لا أريد الصداع في قهوتي. أخرجوا إلى الشارع وتقاتلوا.

كان التشاطو قد تخلى عن قبض فائدة الربح في كل لعبة بعدما انسحب معظم اللاعبين. لقد تركهم يلعبون اللحظات الأخيرة كما هي العادة. سمع صوت صاخب: ـ أيها الناس! أيها المغاربة المواطنون! إنكم تعرفون أن هذا اليوم هو اليوم المشؤوم. في مثل هذا اليوم، منذ أربعين عاماً، وبالضبط في عام ١٩١٢ عقدت الحماية الفرنسية على المغرب ولم نعد أحراراً.

تزاحمنا على شباك السدة. قال الكبداني:

ـ إنه المرواني الأحمق بائع الأرغفة المقلية الباكستانية.

ـ ماذا يقول للناس؟

ـ ماذا سيقول؟ أحمق يهرج على الناس!

ـ الأحمق هو أنت. إنه يعرف ما يقول.

ـ يقولون إنه مخبر يعمل مع المخابرات الإسبانية.

ـ ليس غريباً، لكنه الآن يدافع عن المغاربة.

ـ ليس من حقنا أن نتهمه.

ـ أؤكد لكم أنه يعمل مع منظمة سرية يمولها الإسبانيون الذين يريدون أن يلغَى النظام الدولي في طنجة ليحكموا فيها وحدهم.

صاح التشاطو:

ـ كفوا عن مثل هذا الجدال الخاوي. أنا لا أريد هذه المجادلات السياسية في قهوتي. أخرجوا إلى السوق وتناقشوا وتصايحوا.

صاح المرواني بصوت صاخب، رافعاً يديه بحركة حماسية في الهواء:

ـ الجلاء للاستعمار!

الجموع:

ـ الجلاء! الجلاء!

المرواني:

ـ عاش المغرب حراً مستقلاً!

الجموع:

ـ عاش!

المرواني:

ـ يسقط الخونة!

الجموع:

ـ يسقط!

المرواني:

ـ الجهاد في سبيل الله!

الجموع:

ـ الجهاد! الجهاد يا عباد الله!

صعدت امرأة «جبلية» فوق صندوق خشبي وأخذت تزغرد. تصايحت نساء أخريات.

هبطنا من السدة ووقفنا نطل من خلال حاجز المقاعد والطاولات المتراكمة فوق بعضها. قال التشاطو من فمه وأنفه:

ـ إرجعوا إلى السدة أو اخرجوا.

قفزت فوق الحاجز إلى الخارج. قلت للكبداني:

ـ أتأتي أم لا؟

تردد ثم قفز. قال له أحد اللاعبين الخاسرين:

ـ إرجع إلى مكانك. لا تهتم لما يقوله وجه الزب.

قلت لشاتمي:

ـ وجه الزب هو وجه أمك.

بصق عليّ. بصقت عليه. رمى علي مقعداً. تفاديته. قلت له:

ـ تفو على فرج أمك!

أراد أن يقفز. التقطت المقعد وأعدته له. تفاداه. لم يتركوه يقفز. قال لي:

ـ سترى فيما بعد. سأريك من أنا. سأبصق لك في ثقب مؤخرتك عندما أقبضك.

قلت له قابضاً بجماع يدي على أسفل بطني:

ـ ستقبض لي في هذا.

صرخ التشاطو:

ـ أخرجوا إلى الخارج وتقاتلوا. إتبعوهما.

إنسحبنا أنا والكبداني. كان في جيبي مقشط وشفرتان للحلاقة. كنت متحمساً لاستعمالها. إمّا أن أخسر وإما أن أربح. هذا ما خططته لحياتي في هذه المدينة الممسوخة.

ـ إنهم يريدون أن تبقَى معهم هناك لعلهم يستردون منك ما ربحته لهم.

ـ لست صبياً. أعرف جيداً هؤلاء أولاد القحاب.

ـ كانوا يخادعونك في اللعب. هل فطنت؟

ـ فطنت، لكني كنت أتركهم يغشون ما دمت أنا الرابح.

الجموع تتكاثر. رأينا المرواني يشير إلى الجهات التي ينبغي لهم أن يهاجموها. عندما اقتربنا من الجموع قال لي الكبداني:

ـ معظم هؤلاء الذين تراهم ليسوا من طنجة.

ـ ومن أين جاءوا إذن؟

ـ أنظر إلى سحناتهم. إنهم من «الريف».

ـ الأمر دبره الإسبانيون إذن.

ـ هذا ما قلته في المقهَى.

بدأت الجموع تتجه نحو الحافلات العمومية. كان هناك ركامات من الحجارة وطريق محفرة تعمل فيها الأشغال العمومية. أخذوا يحشون جيوبهم وقلنسوات جلاليبهم بها. تفرقوا في أربعة اتجاهات رئيسية: طريق النظام، عقبة الشاطئ، طريق باب الفحص وطريق السهارين. جماعة هاجمت مركز الشرطة الجنائي بالحجارة. التخريب بدأ في كل مكان عبر السوق. الكبداني وأنا اتجهنا مع الجماعة التي هاجمت طريق السهارين. حجارة تسقط على الشرطي. سقطت خوذته البيضاء. الدم يسيل على وجهه. غطَّى وجهه بيد ووضع يده الأخرى على حاملة مسدسه. هرب نحو المخفر. يطاردونه بالحجارة. حجر يشهم ساعة كبيرة ثابتة في أعلى جانب باب متجر هندي. الساعة تشير فيها إلى الواحدة والربع. واجهة متجر الأحذية يكسر. قلت للكبداني:

ـ لنأخذ بعض الساعات وآلات التصوير.

ـ كلا.

ـ لماذا لا؟

ـ لا نعرف بعد ما سيحدث. من المحتمل أن يلقانا رجال الشرطة ويفتشونا.

ـ أنظر الآخرين كيف يأخذون الأشياء.

ـ ليفعلوا مـا يشاءون. إذا كـانوا هم يلقـون بأنفسهم في بئـر فهـل ينبغي لنا أن نلقي بنفسينا معهم؟

وجهات أخرى تكسر.

ـ إن مثل هذا المثل باطل. هذا جبن.

ـ أسرق وحدك إذا شئت، لكني سأذهب وحدي.

طلقات نارية في ناحية المخفر الجنائي. قال الكبداني:

ـ لقد بدأ رجال البوليس يطلقون النار على الناس.

صرخات. هروب. متجر الأحذية «ريكس» تكسر واجهاته. حشد كبير من المتمردين يفـرون نحو مكـاننا حـاملين الحجـارة في أيـديهم. صرخات النساء والأطفال. الباعة يتركـون دكاكينهم. جـذبني الكبداني من ذراعي:

ـ تعال. إسرع قبل أن نقتل هنا.

إختبـأنا وراء صنـدوق صراف يهودي قـرب باب السـوق. تكسـير المتاجر مستمر عبر طريق ساحـة «بيريث جالدوس». الـطلقات النـارية تقـترب من مكاننا. صرخات وركض. سمعت طلقات قربنـا. رفعت رأسي. رجل يتمرغ على الأرض والدم يسيل من رأسه. شرطي مغربي يجري شاهراً مسدسه في يده بعصبية وحيرة. قال الكبداني:

ـ إحن رأسك ولا تفضحنا.

ـ أنظر من خلال هذا الشق. هل ترى جيداً؟

ـ إني أرى، لكن أسكت.

الجموع تجري صارخة. طلقاتناريـة سريعة تقـترب منا. أراد أن

يختبئ معنا شاب مغربي. دفعناه عنا وقلنا له أن يذهب إلى مكان آخر.

ـ إمش بسرعة. مكاننا ضيق.

توقف ثلاثة شبان عن الركض. إثنان سـاعدا زميلهـما القصير عـلى الصعود فوق سقيفة دكان. طلب منها أن يختفيا بسرعة.

الطلقات النارية المتتـابعة تقـترب منا. صراخ وصـوت جسم يسقط على الأرض. قلت للكبداني:

ـ قتلوا واحداً آخر.

ـ إني أسمع وأرى.

ظهـر شرطي حامـلاً رشاشـاً. قفز الشـاب القصـير صـارخـاً فـوق الشرطي. رفعنا رأسينا معاً. الشرطي مكنفئٌ على وجهه والشاب فـوقه يضربه على رأسه بقبضة يده كما لو أنه يدق مسماراً. قال الكبداني:

ـ هل تعرف ذلك الشرطي؟

ـ من هو؟

ـ إنه المفتش بارثيا (Barcia). أبوه مغربي وأمه إسبانية.

نهض الشاب وأمسك الرشاش الذي سقط على بعد خطوات منها. حـاول، بحركـات عصبيـة، أن يستخـدمـه. لم يعـرف كيف يشغله. المفتش بـارثيا مـا يزال مغشيـاً عليه. رفـع الشاب الـرشـاش إلى فـوق وخبطه على الأرض بقوة شاتماً الرشاش:

ـ يلعن دينك.

ظهر شرطي. أطلق من مسدسـه طلقات متتـابعة. استـدار الشاب

صارخاً. أطلق الشرطي ثانية على بطنه. سقط الشاب ملتوياً على الأرض. قلت:

ـ لقد اخترق الرصاص ظهره وبطنه.

ـ إني أرى كل شيء.

ـ لم أر قط إنساناً يموت بهذا الشكل إلاّ في السينما.

ـ ها أنت تراه الآن.

ـ لا بد أنهم يقتلون الناس بهذا الشكل في أماكن أخرى.

ـ وماذا تظن، هل سيوزعون عليهم الحلوى.

جبين الكبداني عرقان. قلت له:

ـ أضبط نفسك قليلاً.

ـ ماذا تقول؟ إبلع لسانك.

ـ إنك ترتعد.

قال بغضب:

ـ أنا أرتعد؟ ألن تبلع لسانك؟ هل تريد أن يخرجوا لنا مصارينا هنا مثل ذلك الشاب هناك؟

ـ أنت خواف.

ـ طيب، لكن إبلع لسانك.

ظهر شرطي ثالث. طلقة في الهواء. ساعد الشرطي الثالث زميله على إنهاض المفتش. إلتقط الشرطي الثاني الرشاش والقبعة ووضعها له على رأسه سائلاً إياه:

ـ هل أنت بخير؟

قال المفتش دائخاً:

ـ لا بأس. لا بأس.

قال له الشرطي الثاني:

ـ لقد أطلقت على ذلك الكلب.

إقتربوا من الشاب. حركه أحدهم بقدمه ثم ابتعدوا مسرعين في اتجاه السوق الداخلي. قال الكبداني:

ـ لنغادر هذا المكان قبل أن يكتشفونا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان.

طلقات أخرى تقترب نحو مكاننا. قال:

ـ هيا، طِرْ!

خرجت أنا الأول. قلت:

ـ أنظر، إن جسمه يتحرك.

صاح، جاذبا إياي من ذراعي:

ـ طر! هل تريد أن يطيروا لنا رأسينا؟

رأينا الشرطة الثلاثة يسرعون نحو السوق الداخلي الذي يبدو خالياً. ركضنا في طريق المنصور. في عقبة الفرنسيس توقف الكبداني ليبول. أحسست أيضاً برغبة التبول. الهاربون يجرون قدامنا ونحن نبول على باب متجر.

في رحبة «السقاية» رأينا شاباً حاملاً في يده اليمنى قفة يميل جانبه الأيمن على ثقلها. قال الكبداني:

ـ إننا محظوظان.

ـ لماذا؟

ـ ها هو قابيل. سنصحبه إلى كوخه في سيدي بوقنادل.

كان قد حدثني عنه وعن عمله معه حمالاً للبضائع المهربة.

ـ هل هذا هو المهرب الذي يلعب بالمال الكثير كيفما يشاء كما تقول عنه أنت؟

ـ نعم، إنه هو، عنده مال يكفي لتغطيتنا به من القدمين إلى الرأس.

فكرت: إن منظره يوحي أنه لا يملك مائة بسيطة في رأسماله. الساحة خالية. بين حين وآخر يعبرها أشخاص مسرعين. صاح الكبداني:

ـ قابيل!

توقف قابيل. وضع القفة على الأرض. سأله الكبداني:

ـ إلى أين أنت ماش؟

ـ إلى الكوخ، تعاليا معي. هناك سلافة وبشرى. لقد حلقت لتلك القحبة القذرة رأسها وحاجبيها.

حملنا، الكبداني وأنا، القفة بيننا وسرنا نحو طريق أمراح. سأله الكبداني:

ـ ألا تعرف ما يحدث في المدينة؟

ـ لا أعرف بالضبط. ماذا يحدث؟ عندما خرجت من مخزن الخمور الإسباني رأيت الناس يجرون قدامي. هذا كل ما رأيته.

ـ ألم تسمع طلقات النار؟

ـ سمعت بعضها عن بعد، لكني لم أعرف ما كان يحدث. ماذا وقع؟

ـ رجال الأمن يطلقون النار على المغاربة.

ـ لماذا؟

ـ بسبب ذكرى ٣٠ مارس.

ـ والمغاربة بماذا يضربون؟

ـ بالأحجار، بماذا سيضربون؟

ـ هل مات كثير من الناس؟

ـ يطلقون على كل من يمر أمامهم من المغاربة.

سمع وراءنا صوت يصرخ.

ـ ابتعدوا عن الطريق! ابتعدوا!

رجل يحمل على ظهره رجلاً جريحاً ورجل آخر يمشي خلفه. سأل قابيل الكبداني عني:

ـ والأخ الذي معك ماذا يعمل؟

ـ كان بائعاً متجولاً «للحريرة» والسمك المقلي. ترك عمله لأن

صاحب المطعم لم يكن يعطيه أكثر من خمس بسيطات في اليوم. لقد كان يشتغل عنده من الفجر حتّى منتصف الليل.

الكوخ يشرف على منحدر شاطىء سيدي بوقنادل. له باب يؤدي إلى ساحة أمراح وباب يؤدي إلى الشاطىء. فكرت: أنه حقاً كوخ مهرب.

وجدنا سلافة تغني أغنية لفريد الأطرش بصوت يشبه الأنين: «اللي ينساك إنساه ولا يهمك جفاه». رأسها وحاجباها حليقان بالموسَى، وجهها يشبه وجه غلام أمرد، لابسة زكدونا رقيقاً مخططاً بالأسود والأبيض واللون الذهبي. بشرى مستلقية على «المطربة» في يدها «سبسي» لابسة قفطاناً أحمر مزوقاً بأسلاك ذهبية، فوقه «دفين شفاف». ذكرني منظرهما بالأيام الثلاثة التي قضيتها في منزل السيدة عزيزة في تطوان. فكرت: في تلك الأيام كان عندي ألف بسيطة. اليوم جيوبي مثقوبة وبلا عمل قار.

كان طاجين السمك بالبطاطا والطماطم (تاجرا) تفوح منه رائحة الصعتر جاهزاً فوق «الطيفور». جاءتنا سلافة بالطشت والإبريق والصابونة لنغسل أيدينا. تحاول أن تتماسك صابة الماء على يدي الكبداني. عند نوبتي نظرت إليّ باسمة، ثم أطلقت ضحكة خفيفة. تتوقف عن صب الماء على يدي ثم تبتسم وتستأنف الصب والإبريق يتمايل في يدها. أنها ثملة. عند نوبة قابيل أخذت تضحك وهو عبوس. غضب. خطف الابريق من يدها صارخاً:

ـ أطلقيه من يدك يا هذي القحبة القذرة. هل تلعبين معنا؟

ـ القذرة هي أمك. هل تعرف؟

هددها بصفعة. تدخل الكبداني. أمسك الكبداني الإبريق وأخذ يصب على يدي قابيل. قال لها:

ـ في المرة المقبلة لن أحلق لك فقط شعرك وحاجبيك إنما سأكورك من على المنحدر.

ـ جرب إذا ولدتك أمك رجلاً. جرب وسترى من سيكور الآخر أهي أنا أم أنت!

قالت بشرى:

ـ ألن تكفا عن هذا الصداع؟ سأغادر إذا لم تكفا.

الطاجين لذيذ، مليء بالتوابل الحارة. حينما انتهينا من الأكل ظللنا نتحدث عن الحادث المشؤوم، نشرب النبيذ، ندخن الكيف ونستمع إلى أسطوانات أم كلثوم القديمة حتّى الخامسة مساء. كنت قد غفوت فوق المطربة عندما قال لي الكبداني:

ـ محمد، أننا سنخرج. ابق أنت هنا معهما حتّى نعود. عد إلى النوم إذا شئت.

ـ نعم، سأنام قليلاً.

سمعت الباب يغلق بالمفتاح. كنت قد حلمت بصف طويل من الرجال العراة، في ساحة كبيرة، يمرون واحداً فواحداً أمام ثلاثة أو أربعة أشخاص عراة مثلهم واقفين وقدامهم طاولة وأدوات طبية يجزون لهم أعضاءهم التناسلية ويرمونها في برميل. وعلى مدار الساحة المسيجة بمتاريس تقف حشود من النساء العاريات يبكين هؤلاء الرجال.

سلافة وبشرى نائمتان: بشرى نائمة على جنبها الأيمن، مديرة

وجهها إلى الحائط وسلافة تنام على بطنها، مديرة هي أيضاً وجهها نحو الحائط. بدا لي شكلها المتراخي كأنها أنقذت من الغرق. هيجتني مؤخرتها البارزة التكوير. قبل أن أعود إلى النعاس سمعتها تتحرك وتقول:

ـ ذهب ذلك القواد الكلب.

فتحت عيني ببطء. قامت وأشعلت الضوء. كانت مستيقظة إذن. تمطّطت بشكل أبرز صدرها ومؤخرتها. انتصبت مثلما هو شيئي منتصب ونظرت إليّ بدلال: عيناها ناعستان.

ـ أحتىّ أنت تنام؟

جلست وقلت لها:

ـ أستريح قليلاً.

أخذت زجاجة النبيذ المنصفة وكأسين.

ـ تعال إلى الحجرة الأخرى حتىّ لا تفيق بشرى.

أتبعها أم لا؟ أنها هي التي تحكم هنا. ربة كل شيء هنا. عندما وقفت شعرت بدوخة تعبر رأسي واضطراب في القلب. صداع خفيف في جانب رأسي الأيمن. نظرت نحو بشرى. أهي أيضاً مستيقظة؟ صمتها يخيف. النساء يتفاهمن مع بعضهن في مثل هذه الظروف. دخلت الحجرة الأخرى. حجرة النوم مفروشة بأشياء فاخرة. لم أر من قبل حجرة في كوخ مفروشة بهذا الشكل الجميل. في ركن صناديق من الكرتون متراكمة. ربما تحتوي على سلعة. جلست على الفراش. أنا على المطربة.

ـ تعال واجلس إلى جانبي.

ترددت. أضافت:

ـ هل تخاف من قابيل؟

ـ نحن لا نعرف بعضنا من قبل. الكبداني هو الذي عرفني به أثناء هروبنا من الحادث المشؤوم.

ـ أنه غير قادر على فعل أي شيء حتىّ وأن وجدك نائماً معي. أنا التي أعرفه. أنه مثل كلب ينبح ولا يعض.

فكرت: هذا ممكن، لكنه سيطردني من هنا وتبقيان أنتما مع بعضكما. لا شك أنه يحبك. رأيت وسمعت ما يثبت لي أنك الحاكمة.

قمت وجلست قربها على الفراش. ملأت الكأسين بنفسها. مدت يدها إلى علبة سجائر التبغ الأشقر فوق طاولة صغيرة قرب السرير. أشعلت واحدة. رموش عينيها سوداء. عيناها كبيرتان مختلجتان بحمرة. وضعتها لي في فمي وأشعلت أخرى لنفسها. تذكرت للاحرودة في تطوان تضع لي سيجارتها في فمي.

ـ وإذا استيقظت بشرى!

ـ إنها أختي.

ـ أختك؟.

ـ مثل أختي.

ـ فهمت.

نظرت إلي باسمة. شفتاها صغيرتان مثل خاتم الأصبع، في لون الفراولة. المرأة ذات الفم الصغير يكون فرجها صغيراً. هكذا سمعت. ابتسمت لها. شربت كأسها. تمددت على ظهرها. تدخن ناظرة إلى السقف. تضغط على يدي ثم تتركها ثم تأخذها وتفلتها. إنها تتسلّى. تتيقظ ثم تشرد، تجلس ثم تستلقي. دافئة يدها، طويلة أناملها التي تغري بقضمها. رغبة دفء اللحم ترعشني. تمددت جنبها. أدخن وأنظر إلى دمية صغيرة معلقة على الجدار. أضغط مثلها على يدها الرخوة، الحارة الآن. تذكرت الشاب الذي لم نتركه يحتمي معنا خلف صندوق الصراف. شعرت بندم. يدق رأسه كما يدق مسماراً. سقط متمرغاً والدماء تسيل منه. صامتان ويداها في يديَّ تتنزهان. هل يتمتع معها قابيل هكذا؟

تحركنا معاً. تباسمنا. تراقصت عيوننا.

ـ انتظر. سأخلع ثوبي.

أطفأت سيجارتها في المنفضة. النشوة تدغدغ رأسي وثوبها ينسلّ من رأسها وذراعيها. سليبها وردي، بلا رافعة صدر. نهداها صغيران مثل ليمونتين. تذكرت مص البرتقال على الشجرة ـ المرأة في وهران. تلك امرأة من خشب. إن الإنسان يعشق اللحم.

ـ اخلع ثيابك.

ـ من الأحسن أن أبقى لابساً. لن يكون لي الوقت كي ألبس إذا جاء قابيل والكبداني.

ـ لن يعودا إلا بعد ثلاث أو أربع ساعات، أنا أعرفهما جيداً.

ـ أين تظنين أنهما موجودان الآن؟

ـ لا أدري. أنه لا يقول لي قط أين يذهب، لكني أعرف أنه يتأخر عندما يخرج مع أحد أصدقائه. أنه يكون أكثر حماقة حينما يكون مرفوقاً. ربما ذهبا معاً إلى البورديل.

ـ لكن الحالة اليوم ليست عادية في المدينة كلها.

ـ هناك بيوت دعارة كثيرة غير البورديل.

وجهها الغلامي الأبيض المورد الخدين له شكل قلب. أغمضت عينيّ وسقط رأسي على صدرها العاري الحار، فكرت: مخدة من لحم تخفق بعنف. هذه الوسادة من اللحم تخفف صداع رأسي. اصابعها تغوص بلطف في شعري الغزير. يدي تمتد في عماء إلى رأسها. نسيت أن رأسها حليقة. دغدغت شعيراتها المنتصبة كفي. حين ألاطف رأسها من جبهتها حتّى قفاها يقف شعرها. لا بد أنه يغار عليها حتّى يحلق رأسها وحاجبيها. داعبت تصلّب نهدها الداخلي الكروي. تتدغدغ أكثر حين أمص نهدها الأيسر. تغطيه بيدها ضاحكة. هي تريد الأيمن وأنا أريد الأيسر. وبين لعبة الأيسر والأيمن صارت تتدغدغ في كليهما. لعبنا قليلاً ضاحكين. بين هذا وذاك صرنا طفلين.

شغلت يدها في أزرار فتحة بنطالي. أطل قائماً في يدها. نزهت يدها عليه من حشفته إلى منبته. تحك به شفري فرجها. عانتها سوداء وقاس زغبها. خشنة عانتها مثل رأسها. أنا ألح على الولوج وهي تلح على الحك. تضغطه. تخنقه، تقيس حجمه هبوطاً وصعوداً في يدها المكورة. أنا أعد فقرات عمودها الفقري. انتشلته من يدها. نتداخل. نتخارج. تضمني إليها بساقيها وذراعيها. قلت له: اجعل نفسك قوياً معها. كن صديقاً لشيئها أيها الأعور.

أفقت على صوت بشرى:

ـ سلافة، قومي. هل أنت نائمة؟

جلست بسرعة على حافة السرير وسألت بشرى:

ـ ألم يعد الكبداني؟

أجابتني بعد هنيهة:

ـ ليس بعد.

ذهبت إلى حجرة الجلوس. سمعت سلافة تقول لبشرى:

ـ لم يعد بعد ذلك القواد.

وجدتها جالسة تدخن سيجارة. قالت لسلافة:

ـ أخاف أن يكونوا قد قبضوهما بسبب ما وقع في المدينة.

ـ لتحرقه النار.

دخلت المرحاض واغتسلت: حينما خرجت وجدت سلافة خفيفة، مرحة. حدقت فيّ باسمة. نشوة الانتصار بادية على وجهها. جلست على المطربة. انحنت عليّ وأمسكت وجهي بيني يديها ملاطفة إياه وقلبي يخفق بعنف. باستني في فمي كما لو أنها تقبل طفلاً. ابتسمت لها ورأيتها تدخل المرحاض. ذكرتني بفتاة عين قطيوط. أين هي الآن؟ وضعي الآن يختلف. بشرى جالسة مهمومة واضعة مرفقيها على ركبتيها ووجهها بين كفيها. بعد لحظة قامت ووضعت في الحاكي اسطوانة «أكذب نفسي» لأم كلثوم. تذكرت تطوان وحيّ عين خباز والحشاشين والسكارى في القهوة التي عملت فيها. كدت أنتحب. بدت لي جميلة طفولتي في ذلك الحيّ.

المفتاح يدار في القفل. دخل الكبداني ثم قابيل. يبدوان متعبين وحزينين. سألت الكبداني:

ـ ماذا هناك من جديد؟

خفض صوت الحاكي وأم كلثوم تغني: «أكذب نفسي عنك في كل ما أرى».

ـ كل شيء انتهَى الآن. خرجوا وقتلوا كثيراً من المغاربة.

دخل قابيل حجرة النوم وجلس الكبداني قبالتي. خرجت سلافة من المرحاض وسألت الكبداني:

ـ أين كنتما؟

ـ كنا في مهمة.

قالت ساخرة:

ـ قل لي بصراحة بأنكما ذهبتما إلى البورديل وكنتما في دار السعدية الكحلا أو في دار الزهرة الحمقا أو عند برغوثة.

قبل أن يجيبها الكبداني قال لها قابيل:

ـ ألن تغلقي فمك القذر؟

صرخت:

ـ الفم القذر هو فمك.

ثم دخلت حجرة النوم. وقف الكبداني وقال لي:

ـ لنخرج للحظة ثم نعود.

خرجنا من الباب المؤدي إلى منحدر سيدي بوقنادل. صفعني هواء

بارد. أشعلنا سيجارتين. أضواء البواخر الراسية في الميناء رائعة. قال:

ـ سأخبرك بشيء جديد يهمك أن تعرفه.

ـ ما هو؟

ـ لقد وافق قابيل على أن تعمل معنا غداً.

ـ هذا مهم جداً.

ـ لكن بشرط.

ـ ما هو ؟

ـ أن تبقَى هنا في الكوخ هذه الليلة ونهار الغد كله حتَّى يحين موعد العمل في المساء.

قلت لنفسي: هذا ما أريده.

ـ ولماذا هذا الشرط؟

ـ سأشرح لك: قابيل لا يعرفك جيداً بعد، وهو يخشَى أن تبوح بسر العملية لأحد.

ـ إنني فهمت.

ـ أنا أعرفك، لقد تحدثت إليه عنك وأقنعته بأنك جاد ومخلص وشجاع.

ـ شكراً.

ـ لقد سبق له أن وشى به بعض الحمالين مرات كثيرة. هو مقتنع اليوم أن وقوعه في فخ رجال الجمارك أو رجال الشرطة السرية سببه وشاية الحمالين الجدد. يحدث أحياناً أن يكون الجمركيون أو الشرطة

هم الذين يرسلون هؤلاء الحمالين الوشاة ليعملوا مع المهربين. بسهولة يعرف مكان العمل، الساعة، وأحياناً يعرف حتَّى نوع السلعة المهربة. إن الحمالين يأخذون مبلغاً مضاعفاً ثلاث أو أربع مرات من البوليس السري أو من رجال الجمارك أكثر من المبلغ الذي يتقاضونه من المهربين.

ـ غريب.

ـ وأيضاً يشعرون أنهم محميون.

بعد صمت أضاف:

ـ قابيل شخص طيب، عيبه هو أنه بخيل. في غالب الأحيان يدفع من يعمل معه إلى أن يسرقه لكي يأخذ أجرته التي يستحقها. (أضاف): ليس سخياً إلا مع النساء. مع نساء من نوع سلافة.

سألته:

ـ أهو يغار على سلافة؟

ـ أنه يعرف أنها تستطيع أن تفتح فخذيها حتَّى لقرد.

ـ وإذن.

ـ مع ذلك يحبها.

ـ لكن لماذا حلق لها شعر رأسها وحاجبيها؟

ـ حلق لها رأسها وحاجبيها حتَّى لا تغيب طويلاً. أحياناً تغيب عنه اسبوعاً أو أكثر.

ـ هكذا يحبها إذن.

ـ بجنون.

ـ وأين تكون عندما تهرب منه؟

ـ تسكر وتقحب في سهرات منازل الأصدقاء والناس.

ـ وهي، أتحبه؟

ـ وهل مثلها تحب؟ تحب ماله. إنها تصارحه بذلك. سمعتها يوماً تقول له: «أيامك خسارة معي. فتش عن غيري تحبها. ينبغي لك أن تفهم أني لا أحبك».

ـ وبماذا يجيبها هو؟

ـ إنه لا يصدقها. يعتقد أنها تحبه أيضاً على طريقتها. لم أره قط يضربها.

ـ إنه شخص غريب.

ـ هو يعتقد أنها قد سحرت له.

ـ وهل تعتقد أن هذا صحيح؟

ـ كلا، إنها خرافة. إنه يحبها وكفَى.

ـ ولكن كيف استطاع أن يحلق لها؟

ـ أسكرها ووضع لها الحشيش في الشاي. عندما نامت حلق لها بالموسَى.

ـ وماذا فعلت معه عندما أفاقت؟

ـ كسرت بعض أدوات المنزل وسبته وأقسمت أنها ستنتقم منه ذات يوم.

ـ وبشرى؟

ـ أنها صديقتها. سلافة أيضاً تكون مجنونة حين تهجرها بشرى.

ـ أليس لبشرى عشيق؟

ـ لا أدري. أعتقد أنها لا تحب إلاّ نفسها. مزاجها صعب، لكنها طيبة، لا تحقد على أحد. لا تتكلم إلاّ عند الضرورة. الحق يكون معها دائماً إذا هي تكلمت.

ـ لاحظت ذلك.

أشعلنا سيجارتين أخريين. فكرت في أن أطلع الكبداني على ما فعلته مع سلافة، لكني خفت أن يغار أو يحسدني. ربما يخبر قابيل ليبرهن له على اخلاصه الحميم.

حينما عدنا إلى الكوخ كانت أم كلثوم أيضاً تغني بصوتها القوي:

إني أغار من الكؤوس فجنبي كأس المدامة أن تقبل فاك

١٠

في الصباح بقينا، سلافة وأنا، في الكوخ. قابيل والكبداني خرجا دون أن يخبراني عما سيفعلانه في الخارج. بشرى ذهبت لتزور أمها. لم ترها منذ بضعة أيام. خمنت أن يكون قابيل والكبداني قد ذهبا ليهيئا الوسائل التي سنعمل بها في عملية التهريب. سلافة تنظف حجرة النوم وأنا مستلق أدخن سجائر شقراء وأفكر في وضعي الجديد بقلق.

ـ سلافة، هل هناك كأس خمر؟

أطلت عليّ باسمة:

ـ أنتظر قليلاً. سنفتح زجاجة نبيذ ونشربها معاً.

ابتسمت مرة أخرى واختفت. فكرت: لقد دخلنا في لعبة العشق. القلق يتصاعد في نفسي. أن اغراءها بدأ يشقيني. ذكرني وضعي في الكوخ بذلك الصباح الذي حبسني فيه صاحب الغرسة الذي كنت آكل له اجاصة في حيّ عين قطيوط، لكن الوضع يختلف. أستطيع أن أبقَى هنا أو لا أبقى. نهضت. وقفت على المطربة وأطللت من الكوة المفتوحة على البحر. السماء غائمة. البحر هائج. بعض البواخر الكبيرة والصغيرة تعبر البحر. وقفت ورائي. وضعت يديها على كتفي. أنفاسها حارة في أذني اليمنَى. تدغدغ جسمي كله.

همست:

ـ ماذا تنظر؟

أنفاسها ودفؤها جعلاني أنتصب. هل صرت عشيقها؟ البؤس والحب. أليس هذا رائعاً؟

ـ أنظر إلى البحر. لم أسافر قط في البحر. أنه يغريني بالسفر فيه ألى أبعد مكان في العالم. هل سافرت أنت في البحر؟

ـ أنا؟ (ضحكت). اسألني فقط أن كنت قد خرجت من طنجة. لم أسافر في البحر ولا في البر.

تخيلت أني أراها قادمة إليّ ماشية في الفراغ ثم سابحة ثم طائرة في ثوب أبيض.

ـ ألم تخرجي قط من طنجة؟

ـ أبداً. أين تريد لي أن أذهب؟ مع من؟ (أضافت): عندي احساس إني إذا غادرت هذه المدينة فلن أعود إليها أبداً. أبداً لن أعود.

ـ عندي نفس الأحساس.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

التفت إليها. فتحت عينيها بقوة في عيني كما لو أنها تقول لي: «ألا يعجبك ردي على سؤالك؟» لم أستطع أن أقاوم نظراتها. خفضت نظراتي. أنها بدأت تقلقني. حولت نظراتي نحو الباب.

ـ نحو ماذا تنظر؟

ـ نحو الباب.

ـ ماله؟

ـ لا شيء.

ـ فيم تفكر؟ أنك تفكر في شيء.

ـ أفكر في الباب.

ـ لماذا؟

ـ أكره أن يقفل عليّ أحد الباب.

جلسنا. فكرت في الموت. الحب دائماً يجعلني أفكر في الموت. أحس نفسي سارقاً ومسروقاً. زجاجة نبيذ وقدحان فوق الطيفور.

ـ أنا أيضاً كان يضايقني أن يقفل عليّ أحد الباب، لكني تعودت.

ـ أنا لم أستطع أن أتعود، ولا أريد أن أتعود. . أنني أشعر كأنني في سجن.

ـ عندك الحق.

أننا الآن سيان، أنا وهي، أمام هذا الباب المقفل: هي عشيقة قابيل وأنا حماله الذي لا يثق فيه بعد. فكرت أن أقوم وأكسره، لكني سأفسد كل شيء: صداقتي مع الكبداني، علاقتي بسلافة وأمكان أن أصير حمال قابيل مثل الكبداني الذي يثق فيه.

ـ في أي شيء تفكر؟ كفاك من التفكير. أفتح الزجاجة.

أخذت المبزل من فوق الطيفور. قالت بعد لحظة:

ـ عندي شيء أقول له لك.

نظرت إليها:

ـ ما هو؟

ـ أن نغادر طنجة إذا شئت.

نظرت إليها بامعان.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان. إلى الدار البيضاء، مثلاً.

فكرت أن أقول لها: ورأسك وحاجباك الحليقان؟ لم أرد أن أحزنها. ربما هي ناسية.

ـ وماذا سنفعل هناك؟

ـ أي شيء.

فتحت الزجاجة وملأت القدحين.

ـ لكني لا أتقن أي عمل. وأنت ماذا ستفعلين؟

ـ أستطيع أن أقوم بأي عمل. أن أعمل، مثلاً، خادمة عند إحدى الأسر الفرنسية. أن صديقتي فضيلة هناك وجدت عملاً بمجرد أن وصلت وأتصلت بأسرة فرنسية.

فكرت في الكبداني الذي قال لي بأن سلافة تكون مجنونة عندما تهجرها بشرى.

ـ وبشرى؟

ـ ستذهب أيضاً معنا.

فكرت: أليست حمقاء هذه المرأة؟ قلت لها بخبث:

ـ فهمت جيداً ما تقولين.

ـ أنها طيبة. مالها ؟ ألا تراها طيبة؟

ـ لم أقل عيباً فيها. أنني سألتك فقط.

قالت بتوتر:

ـ أنها أخت. أنك لا تعرفها بعد. حين تعرفها ستعتبرها كأختك.

فكرت: أنني أفهمك الآن جيداً يا سلافة. سنصير أخويها وتصير أختنا التي تصالحنا عندما نتخاصم. هي الرزينة ونحن الطائشان. مددت لها كأسها. مدت لي كأسها لأشربه من يدها وجعلتني أمد لها كأسي لتشربه من يدي. ذراعانا متقاطعان شاربين ببطء. ابتسمنا كطفلين. حركة رائعة لم أتمتع بها من قبل. نظرت نحو الباب. نظرت هي أيضاً. طلبت فمي بعينيها الناعستين. مالت عليّ. تسكب فيه شيئاً فشيئاً ما تبقّى من النبيذ في فمها. أمتلىء بلذائذ كثيرة من خلال هذه المرأة. انسحبنا إلى حجرة النوم.

قبل المضاجعة وبعدها يكاد يغلبني البكاء. لا أعرف لماذا!

كنا في قاعة الجلوس عندما دار المفتاح في قفل الباب. فريد الأطرش يغني: «امتَى تعود يا حبيب الروح؟» وسلافة تفكر. لا هي حزينة ولا هي فرحة. لا أعرفها إلاّ عندما تبتسم أو تصرخ. من يدري ما تفكر فيه الآن؟ ربما هي قلقة لأني لا اجيبها بصراحة عن

مشروع مغادرتنا طنجة إلى الدار البيضاء. تركتها لنفسها. دخل الكبداني حاملاً قفة ملأى بالتسويقة، متعباً. قلت له:

ـ آ. قابيل، جئت!

نظر إليّ باستغراب، اعتذرت له باضطراب:

ـ عفواً كنت أفكر في شيء. ما هي الأخبار؟

ـ أف، مصيبة.

وضع القفة قدام سلافة وقال لها:

ـ هاك، اقلي السمك كله، هذا ما قاله قابيل.

قالت بحدة:

ـ أفي هذه الساعة تأتيني بالسخرة؟

ـ كنا مشغولين في مهمة.

ـ ماذا يهمني أنا؟ كان ينبغي أن تأتيني بالسخرة قبل الآن.

فكرت: أنها تكذب. سألته:

ـ هل حدث شيء جديد؟

ـ لقد اتضح الآن كل شيء. الاسبانيون هم الذين خططوا للحادث المشؤوم.

ـ اذن ما كانوا يقولونه عن المرواني في مقهى التشاطو صحيح؟

ـ ربما. من يعرف! ما يعرفه معظم الناس حتّى الآن هو أن الاسبانيين هم سبب المأساة المشؤومة.

ـ استغلوا اذن ذكرى ٣٠ مارس واستعملوا المغاربة في هذه القضية كبيادق.

ـ هذا ما يبدو.

ـ هذه مصيبة.

ـ لقد مات عشرات المغاربة ولم تمر إلاّ ستُ أو سبع جنائز من السوق الداخلي بعد أن صلوا على الضحايا في الجامع الكبير.

ـ والأموات الآخرون؟

ـ لا بد أن أنهم أخفوهم حتّى لا يثيروا غضب المواطنين المغاربة. أن معظم الذين ماتوا ليسوا من طنجة. أنه سهل دفنهم سرّاً.

بعد لحظة سألته:

ـ هل يسمحون للناس أن يتجولوا في الشوارع؟

ـ نعم، لكن الحراسة ما زالت شديدة في جميع الطرق. يلقون القبض على المشبوهين. أن العسكريين يتعاونون مع رجال الأمن في الحراسة.

ـ وقابيل؟

ـ ذهب إلى منزل أبويه. (أضاف): وبشرى، ألم تعد بعد؟ قالت سلافة:

ـ ليس بعد. لماذا لا تذهب وتصحبها معك إلى هنا؟ قد تكون خائفة من العودة بسبب الحراسة. (أضافت بصوت رقيق فيه رجاء): اذهب وآتِ بها.

مشروع مغادرتنا طنجة إلى الدار البيضاء. تركتها لنفسها. دخل الكبداني حاملاً قفة ملأى بالتسويقة، متعباً. قلت له:

ـ آ. قابيل، جئت!

نظر إليّ باستغراب، اعتذرت له باضطراب:

ـ عفواً كنت أفكر في شيء. ما هي الأخبار؟

ـ أف، مصيبة.

وضع القفة قدام سلافة وقال لها:

ـ هاك، اقلي السمك كله، هذا ما قاله قابيل.

قالت بحدة:

ـ أفي هذه الساعة تأتيني بالسخرة؟

ـ كنا مشغولين في مهمة.

ـ ماذا يهمني أنا؟ كان ينبغي أن تأتيني بالسخرة قبل الآن.

فكرت: أنها تكذب. سألته:

ـ هل حدث شيء جديد؟

ـ لقد اتضح الآن كل شيء. الاسبانيون هم الذين خططوا للحادث المشؤوم.

ـ اذن ما كانوا يقولونه عن المرواني في مقهَى التشاطو صحيح؟

ـ ربما. من يعرف! ما يعرفه معظم الناس حتَّى الآن هو أن الاسبانيين هم سبب المأساة المشؤومة.

ـ استغلوا اذن ذكرى ٣٠ مارس واستعملوا المغاربة في هذه القضية كبيادق.

ـ هذا ما يبدو.

ـ هذه مصيبة.

ـ لقد مات عشرات المغاربة ولم تمر إلاّ ستُ أو سبع جنائز من السوق الداخلي بعد أن صلوا على الضحايا في الجامع الكبير.

ـ والأموات الآخرون؟

ـ لا بد أن أنهم أخفوهم حتَّى لا يثيروا غضب المواطنين المغاربة. أن معظم الذين ماتوا ليسوا من طنجة. أنه سهل دفنهم سرّاً.

بعد لحظة سألته:

ـ هل يسمحون للناس أن يتجولوا في الشوارع؟

ـ نعم، لكن الحراسة ما زالت شديدة في جميع الطرق. يلقون القبض على المشبوهين. أن العسكريين يتعاونون مع رجال الأمن في الحراسة.

ـ وقابيل؟

ـ ذهب إلى منزل أبويه. (أضاف): وبشرى، ألم تعد بعد؟ قالت سلافة:

ـ ليس بعد. لماذا لا تذهب وتصحبها معك إلى هنا؟ قد تكون خائفة من العودة بسبب الحراسة. (أضافت بصوت رقيق فيه رجاء): اذهب واتَ بها.

ـ لا أعرف أين تسكن.

ـ تسكن في دار البارود قدام مقهى الماكينة. اسأل عنها أي واحد تجده هناك يدلك على مسكنها. لا بد أن تجد بعض الأطفال يلعبون في الحيّ. أنها معروفة في حيها.

ـ ستعود وحدها. (أضاف): الناس لا يخرجون إلّا لما هو ضروري وقريب من منازلهم. أما الأطفال فلم أر ولو واحداً طوال الصباح.

قالت بحدة:

ـ خلاص. الفناء في العالم. أنك لا تريد أن تذهب وكفَى.

ـ ليس هكذا، أنما...

قاطعته غاضبة:

ـ كفَى، أرجوك لا تقل لي شيئاً أكثر.

بعد لحظة قالت كما لو أنها تكلم نفسها:

ـ أنا أعرف ما سأفعل بنفسي: أحلف لكم أنني إذا بقيت هنا معكم فابصقوا وبولوا عليّ.

قال لي:

ـ لقد رتبنا كل شيء. هيئ نفسك للعمل الليلة. سيعمل معنا ثلاثة حمالين آخرين. سنستخدم سيارتين: واحدة لشحن السلعة والأخرى لنقل الحمالين. أنا سأتكلف بنقل السلعة في زورق من المركب إلى الشاطئ. أنت ستكون مع الحمالين الثلاثة الذين سينقلون الصناديق من الشاطئ إلى السيارة. عليك أن تكون شجاعاً، قوياً وسريعاً في

حمل كيسك. قد يحدث أن يفاجئنا رجال الجمارك على الشاطئ أو عند دخولنا المدينة. في هذه الحالة عليك أن تعمل بتعليمات قابيل أو شريكه الذي ستعرفه أثناء العملية. قد يحدث نفس الشيء مع الشرطة السرية أثناء إنزال السلعة في المدينة. لا أكتمك أن العملية لا تخلو من الخطر والمغامرة. ربما يطلقون علينا النار في حالة الفرار. هل فهمت؟

ـ نعم.

ـ أحياناً يحدث أن يرشي صاحب السلعة رجال الجمارك أو الشرطة السرية. غالباً لا يتفقون على مبلغ الرشوة. هنا يحدث الفرار والعنف.

ـ ماذا تقصد بالعنف؟

ـ أحياناً تدور المعركة بالسلاح.

فكرت: قابيل يملك إذن سلاحاً. ينبغي لي إذن أن أحذر من علاقتي مع سلافة. ماذا يمنعه من أن لا يطلق علينا النار، إذا وجدنا في الفراش؟

ـ وهل قابيل مسلح؟

ـ أوه، ها أنت تتدخل فيما لا يعنيك. إنني أقول لك فقط ما يمكن أن يحدث. لا يهمك أو يهمني إذا كان قابيل وشريكه يملكان سلاحاً أو لا. أتفهم؟

ـ نعم، لكنني أسألك فقط.

فكرت: لقد انزلقت على قشرة موز. ربما يعرف الآن أن لي علاقة مع سلافة.

ـ إنني أقول لك أشياء لا يمكن لي أن أقولها لأي حمال آخر.

ـ أنا أعرف.

سألها:

ـ سلافة، أين السبسي؟

قالت من المطبخ:

ـ لا أدري. فتش عنه.

فكرت: لقد بدأت تنتقم منه. تذكرت أننا دخنا، هي وأنا، قليلاً من الكيف في حجرة النوم. تظاهرت أنني أفتش معه عن السبسي في حجرة الجلوس. ذهب إلى حجرة النوم. قال:

ـ لقد وجدته.

قمت ووضعت في الحاكي أسطوانة «عندما يأتي المساء» لعبد الوهاب.

ركبت مع ثلاثة حمالين شبان وشيخ يقود السيارة. كنت أصغرهم. رائحة خمر تفوح من السائق. يسوق جيداً. لا يتعدى مؤشر السرعة ٧٠ كلم. في المنحدرات والمنعطفات ينخفض المؤشر إلى ٤٠ أو ٣٠.

وصلنا إلى رأس سبارطيل حوالي الثانية صباحاً. توقفت سيارتنا وراء سيارة كبيرة سوداء. نزلنا. فتح باب السيارة الأخرى. خرج رجل طويل القامة، قوي. قدرت أنه في حوالي الخامسة والأربعين. إقترب منا بهدوء وسأل السائق:

ـ كيف هي الحالة في الطريق؟

ـ حسنة. لم نشك في شيء.

نزلنا ثلاثتنا ما عدا السائق. فهمت مما قاله السائق الشيخ أننا لم نلتق بأية دورية للحراسة. أدركت أن هذا الرجل القوي هو شريك قابيل. قال لنا:

ـ كونوا رجالاً.

ثم وضع يده على كتفي مركزاً نظراته عليّ:

ـ من أية ناحية من الريف أنت؟

ـ من بني شيكر.

ـ أعرف الشكريين. الريفيون شجعان.

سحب يده وأضاف:

ـ أنا أعرف الريفيين جيداً. كانوا معي في الحرب الإسبانية الأهلية. كن رجلاً مثل رجال بلادك.

إنشرحت ملامحي. أخرج علبة سجائر ومدها إلى كل واحد منا. فكرت: إنها بادرة حسنة منه. قذر من يخون هذا الرجل. إن له شخصية طيبة وجذابة. قابيل يبدو طفلاً أمام هذا الرجل. قد يكون قابيل أيضاً طيباً، لكن شخصيته ضعيفة. يلزمني أن أكون مخلصاً. قال لنا:

ـ هل أنتم مستعدون؟

قلنا له واحداً بعد آخر:

ـ نعم.

هبطنا منحدراً صعباً. نسير بين الأشجار والحشائش والصخور.

فكرت: هل من هنا سنعود صاعدين مثقلين بالبضائع؟ قال لي شريك قابيل:

ـ ناديني القندوسي إذا أردت أن تناديني.

أدركت أن هذا اللقب هو لقب المهنة السري. الطريق التي كنا نسلكها كانت وعرة. تعثرت مرات في الحفر والحجارة الناتئة. قال لي:

ـ ينبغي لك أن تحذر جيداً من السقوط عندما تعود حاملاً ثقلك. إن ما في داخل الصناديق يتكسر.

فكرت: ماذا سيكون داخل الصناديق؟ شيء يتكسر. تراه ماذا؟

حينما بلغنا الشاطئ أخرج مصباحاً بطاريا وأخذ يرسل علامات نحو البحر. تلقى جواباً بنفس العلامات الضوئية.

وجدنا هناك قابيل جالساً وحده. إلى جانبه حزمة أكياس وحزمة حبال.

ـ آ، وصلتم. هل كل شيء جاهز؟

ـ كل شيء حسن حتًى الآن.

بدأ يسمع هدير محرك وإشارات ضوئية ترسل نحو الشاطئ. أجاب القندوسي بنفس العلامات. البحر هائج قليلاً. الهدير يقترب. قال لنا القندوسي:

ـ كونوا على استعداد.

توقف الهدير. بعد حوالي ربع ساعة من الصمت أرسلت من المركب علامات أخرى. أجاب عليها القندوسي بنفس العلامات. قال لنا:

ـ الزورق آت إلينا. لنقترب.

عندما اقتربنا من حافة الشاطئ خلع حمالان نعليهما المطاطين وبنطاليهما. تراءى لنا الزورق ينخفض ويعلو مع الأمواج العالية. دخل الحمالان في الماء. أحاطا الزورق من الجانبين. نزل الكبداني إلى الماء وأخذوا يدفعون الزورق إلى حافة الشاطئ. شرعنا جميعاً ننقل الصناديق إلى الرمل غير بعيد عن حافة الشاطئ. الصناديق لم تكن كبيرة ولا ثقيلة كما كنت أتصور. فكرت بأن ما بداخلها لا بد أن يكون ثميناً: ربما تحتوي على ساعات.

أنزلنا بسرعة تسعة صناديق. سأل القندوسي الكبداني:

ـ هل هناك خطر في عودتك إلى المركب؟

ـ ما أظن.

ـ إذا كنت تعتقد أن هناك خطراً في عودتك إلى المركب فيمكننا أن نسحب الزورق إلى الشاطئ وفي الصباح ندبر شأننا معه.

ـ ما أظن أن هناك خطورة.

ـ إحذر جيداً من الصخور.

ـ إنني أعرف هذه المنطقة جيداً.

قلت للكبداني:

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء. (أضاف): بعد حوالي ساعة سأجدك في الكوخ.

كان زورقه سيجره المركب حتًى ميناء طنجة.

شرع الحمالان العاريان حتّى النطاق يدفعان الزورق إلى البحر والكبداني رافع المجذافين عن الماء. رأيت الكبداني يختفي في ضباب الليل وهدير الأمواج.

وضعنا بسرعة صندوقين في كل كيس. قال لي القندوسي، بعدما انتهينا من ربط فوهات الأكياس:

- إذا لم تكن قادراً على حمل صندوقين فاحمل واحداً.

قلت له واثقاً من نفسي:

- إنني أقدر أن أحمل ثلاثة صناديق إذا شئت.

أردت أن أتحدى قوتي وسني. ربما ما يدفعه إلى الشك في قوتي هو نحول جسمي. فكرت: إن مثل هذا العمل أفضل لي من التسول والسرقة، أفضل من ترك عضوي يمصه عجوز وبيع «الحريرة» والسمك المقلي للبدويين والعمال في السوق البراني و«فندق الشجرة». أفضل من أي عمل آخر كنت أقوم به من قبل. إنها مغامرة تجعلني أشعر برجولتي وأنا في السابعة عشرة من عمري. إن مرحلة جديدة من حياتي تبدأ في هذا الصباح الباكر.

حملنا الأكياس ومشينا في نفس الطريق التي هبطنا منها. القندوسي يتقدمنا وقابيل خلفنا لا يحمل شيئاً. يبدو أنه ثمل. أعتقد أنه لا يستطيع أن يواجه مغامرة إلّا وهو ثمل. كل واحد منا، نحن الحمالين، يحمل كيساً يحتوي على صندوقين. الصندوق التاسع حمله القندوسي في كيس. بعد دقائق بدأ حملي يثقل عليّ شيئاً فشيئاً. ألم في عظام كتفي وفي رقبتي. ألأنني لم أضع الكيس في وضع حسن؟ لم أجرؤ أن أغيّر من وضع الكيس على كتفي حتّى لا أجعل القندوسي يظن أني تعبت ونحن

ما زلنا في وسط الطريق. قد لا يستخدمني في عملية أخرى إذا بدوت في هذه العملية الأولى رخواً. قابيل بدا لي أخيراً مجرد شخص فائض. أينبغي لي أن أطيع أوامره أم لا؟ لكن لماذا هذه المشاعر العدوانية نحوه؟ إنه حتّى الآن طيب معي. علي أن أتخلص من هذه المشاعر الشريرة رغم أنها تخفف عني ألمي. سأصمد. هذا أفضل. سأصمد رغم أني أحس بكتفي تتنملان وعظام رقبتي تطقطق. ألهث قليلاً وحلقي ينشف. عياء تنفسي ربما هو نتاج عن كثرة تدخيني السجائر الشقراء والكيف. سلافة سبب في هذا العياء. لقد ضاجعتها أربع مرات البارحة. ها أنا الآن أشتاق إلى مواقعتها. سأجامعها إذا نجحت هذه المغامرة وسبقت قابيل والكبداني إلى الكوخ. لكن والمفتاح؟ الأجر الذي سأقبضه عن عملي هذا يبدو لي مقدماً تافهاً ما دمت أجد كل شيء في الكوخ. قيمة المال نافعة لي فقط خارج الكوخ. أتمنى الآن لو كانت معنا سلافة. أن تمشي أمامنا دون أن تحمل شيئاً. هل بدأت أحبها؟ مشاعر عدوانية تتملكني فجأة نحوها. أتخيلني أسبها وأصفعها كي أثير غضبها. أحبها غاضبة أكثر مما أحبها هادئة. أحبها حزينة أكثر مما أحبها فرحة. أحبها حمقاء. أحبها كما تكون مع قابيل، مثلما أراهما يتشاكسان.

عندما بلغنا إلى الطريق وجدنا السائقين خارج السيارتين ينتظراننا. تعاونا معنا بسرعة على شحن السلعة في السيارة الأولى. ركب القندوسي وحده في سيارة السلعة وركب معنا قابيل في سيارة الحمالين. كانت سيارتنا تسبق الأخرى. مسافة حوالي مائة متر تفصل بين السيارتين. السرعة متوسطة. فكرت: لا بد أن يكون لهذا السبق ولهذه المسافة الفاصلة سر. خلال الطريق لم نتبادل أية كلمة بيننا. بين حين وآخر يسعل الحمّال الجالس عن يميني ويسحب نفساً عميقاً من أنفه

بحركة عصبية. مررنا بطريق مقبرة الكلاب. عند مفترق طرق بوبانة توقفت السيارتان. نزل قابيل ثم رأيت سائق السلعة ينزل ويتجه نحونا. قال قابيل لسائق سيارتنا:

ـ أوصلهم إلى حيثما يريدون.

مد لي المفتاح قائلاً:

ـ إذهب إلى الكوخ. لا تفتح إلّا للكبداني إذا جاء.

إحتل سائق سيارة السلعة مكان قابيل واتجهنا في طريق الدرادب. تركنا سيارة السلعة واقفة في مكانها. تأكدت الآن أن القندوسي وقابيل لا يثقان في أحد. بعد أن تختفي سيارتنا سيقصدان مكاناً مجهولاً ويفرغان سلعتهما. لم يطلب مني أن أفتح له إذا جاء. لا بدّ أنه يملك مفتاحاً آخر. أتمنّى أن يبقى منشغلاً في عمله حتّى الغد.

عندما بلغنا عقبة الدرادب قال لنا السائق الذي تفوح منه الآن رائحة الخمر أكثر من ذي قبل:

ـ إلى أين تريدون أن أوصلكم أيها الإخوان؟

قال اثنان:

ـ أتركنا في السوق الكبير.

قلت له:

ـ أنا أتركني في القصبة.

ـ أنا أعرف.

قال الحمال الذي يسعل:

ـ أنا أيضاً أتركني في القصبة.

نظرت إليه. نظر إليّ هو أيضاً دون أن نتكلم.

في السوق الكبير نزل الحمالان. رأينا شرطيين يتجولان. دخلت السيارة من باب الفحص. الشوارع خالية. شرطيان آخران يقفان تحت شرفة إحدى العمارات. خشيت أن يوقفا سيارتنا ويطلبا منا أوراق التعريف الشخصية.

في ساحة القصبة نزلنا أنا والحمال وبقي السائقان مع بعضهما. قلت لرفيقي:

ـ أنا سأذهب من هنا إلى أمراح.

سعل وقال:

ـ تلك أيضاً طريقي.

لم أجرؤ أن أسأله عن سير العملية التي قمنا بها. بعد لحظة سألني:

ـ أهو الكبداني صديقك؟

ـ نعم.

ـ إنه شاب طيب. (أضاف): أهذه هي المرة الأولى التي تعمل فيها حمالاً في مثل هذا العمل؟

ـ نعم، لأول مرة.
ـ وقابيل صديقك؟

ـ الكبداني هو الذي عرفني به. وأنت تعرف قابيل جيداً؟

ـ كلا. أنا أعرف القندوسي. إنه رجل شجاع. رزين. إذا وعد

بشيء يفي به. كل حمالي التهريب يحبون العمل معه.

ـ أنا سأذهب من هنا.

ـ إنك تسكن مع قابيل إذن.

ـ كلا. إنني مجرد ضيف عنده. ليس لي مكان ثابت أنام فيه.

تودعنا ودخلت في ظلام الدرب. لا أسمع سوى خطواتي. سمعت مواء قطين ثم معركة. مرَّ قدامي أحدهما يطارده الآخر. لا بد أنها ذكر وأنثى. القطة هي الهاربة كما هي العادة. أتمنى ألا تكون سلافة مثل هذه القطة في هذه الساعة. المضاجعة في نهاية الليل. ستكون أول تجربتي.

وضعت أذني على باب الكوخ. القطان يتماوءان بعيداً عني. أدخلت المفتاح بمهل وفتحت. حجرة النوم مضاءة. أهي ما زالت يقظى؟ أقفلت الباب تاركاً المفتاح في ثقب القفل. دخلت حجرة النوم. على الطيفور زجاجة نبيذ والسبسي وعلبة الكيف. تنام على جنبها الأيمن منكمشة على نفسها. أشعلت الضوء في حجرة الجلوس. رأيت بطانيتين ووسادتين فوق المطربة. فكرت: بطانية ووسادة لي والأخريان للكبداني. خلعت ثيابي. سمعت حركتها في الفراش. عندما دخلت وجدتها قد غيرت وضعها. تدير وجهها إلى الحائط وما زالت منطوية على نفسها. جلست على حافة السرير واضعاً يدي على كتفها. ترددت في إيقاظها. تمددت بهدوء وراءها. قالت بتذمر:

ـ إن قدميك باردتان كالثلج.

بعد لحظة بدأت يدي اليمنى تتنزه في بستان جسمها: في صدرها برتقال وتفاح، في مؤخرتها الاجاص والخوخ وبين فخذيها الكاكي

و... نزعت لي يدي بسرعة عندما بلغت شجرة الكاكي. قالت:

ـ لا تلمسني هناك. فيَّ الدم. نَمْ. إذا كنت ستنام.

ـ فيك الدم؟

ـ نعم، فيَّ الدم. ألا تعرف هذا في النساء؟

تذكرت مونيك في الحمام تنظف شيئها الملوث بالدم. الآن هي إذن مثل مونيك.

ـ أفهم الآن. (أضفت): وكم سيبقَى فيك الدم؟

ـ أف! ثلاثة أيام على الأقل.

فكرت: ها هي فرصة مضاجعتها في الفجر قد ضاعت. شيئي منتصب في منطقة الخوخ. حين أراد أن يتنزه أجفلت منقلبة على ظهرها قائلة:

ـ احشم قليلاً. هذا ما لن أفعله معك.

ـ مجرد نزهة قصيرة ويتم الأمر.

ـ ماذا تقول؟ أنت أحمق أم ماذا؟

ـ ولماذا لا؟

ـ هذا الشيء لا يفعل مع النساء. عيب وحرام. أتفهم الآن؟

ـ حرام؟

ـ نعم، حرام.

تمددت على ظهري مثلها. أتأمل فوق الغطاء بروز شيئي المنتصب.

كيف أجعله ينام؟ إنه عنيد. لأول مرة أراه عنيداً بهذا الشكل. ضغطت على يدها في يدي لحظة ثم وضعتها فوقه. انتظرت أن تلاعبه بيدها كما فعلت معه في أول يوم. لكن يدها ظلت قابضة عليه بتصلب دون أن تتحرك. حين وضعت يدي فوق يدها وجعلتها تلاطفه نزعت يدها وقالت بتذمر:

ـ اتركني. ألا تستطيع أن تنام دون أن تفعل هذا الشيء؟

في هذه اللحظة كانت يدي هي التي حلت محل يدها المتصلبة. بدأت أدلكه وأحممه بلطف. قالت:

ـ ماذا تفعل؟

ـ خليني. (أضفت): لا بد أن أفعل له هذا حتّى ينام. لو كنت مكاني لفعلت له نفس الشيء.

ـ ستوسخني. إذهب إلى الحجرة الأخرى وافعل له ما تشاء هناك. (أضافت): أف من شهوة الرجال.

نزلت من الفراش وأنا أتخيلني قابضاً على أسية عارية بين ذراعي قدام الصهريج. دخلت الحجرة الأخرى قابضاً عليه برفق حتّى لا يبرد. تغطيت بالبطانيتين وأعدته إلى دفء يدي قبل أن يخور.

في الصباح، حوالي التاسعة، تناولنا الفطور صامتين في حجرة الجلوس. هي شاحبة، حزينة، حالمة. أنا أيضاً شعرت بإنهاك وندم على ذلك الإغتصاب الخيالي. أليس جنوناً أن أتخيل جسم أسية وأغتصبها وأنا لم أعرف أهي ما زالت حية أم ميتة؟ كان أفضل لي لو أني نمت متدفئاً بجسم سلافة. كنت أحس بها إلى جانبي تخفق.

تتحرك، ألمسها وأشمها. أسية كانت عدماً في خيالي. كنت استمني على العدم.

لم يجيء أحد. أهو نزيف الدم الذي يحزن سلافة الآن؟ النساء أحياناً يغتصبن، يلدن وينزفن دماً عدة أيام في الشهر. أخشَى أن يكون الكبداني قد سقط في فخ رجال الجمارك. حتّى الآن يبقَى أفضل صديق لي في هذه المدينة. ربما تكون حزينة على بشرى التي لم تعد! الكبداني كان على حق عندما تحدث لي عن سلافة وبشرى. ها هو جنون سلافة الحزين قد بدأ. ماذا قد يحدث لها إذا طال غياب بشرى؟ لا أظن غياب قابيل يحزنها. لست أدري. الأمر غامض. نظرت إليها. إنها غارقة الآن في ذهول تام. مع ذلك يعجبني حزنها هذا. ربما شيء ما في نفسها تذكرت خسرانه. قد تكون الآن تفكر في ضياعه إلى الأبد أو في وسيلة ما لاسترجاعه. من الأحسن أن أخرج وأتركها لنفسها حتّى لا تكرهني. العالم حزين وعفن. نهضت واقفاً:

ـ سأخرج لأرى ماذا يحدث اليوم في المدينة بعد الحادث المشؤوم.

تطلعت إليَّ ذاهلة للحظة. حنت رأسها كما لو أنها لم تستطع أن تفيق من شرودها. ظلت ناظرة في الفراغ وأنا واقف قدامها. قالت بعد لحظة رافعة رأسها بشرود:

ـ هل دفع لك قابيل أجرك عن عملك معه أمس؟

ـ ليس بعد.

ـ انتظرني لحظة.

قامت ودخلت حجرة النوم. لم أرها حزينة بهذا الشكل من قبل.

إنها تشبه بشرى اليوم. تعجبت حين ذكرت اسم قابيل ولم تشتمه كعادتها. ربما لأنها ليست غاضبة. بماذا ستفاجئني؟ قلقي يتضخم. ظهرت حاملة في يدها ثلاث ساعات يد وفي اليد الأخرى ورقتين من فئة مائة بسيطة. نظرت إلى المنديل الجميل الأزرق الذي لفت به رأسها. إنها تشبه الآن إحدى الفرعونيات اللواتي رأيت صورهن المنزوعة من بعض المجلات. نظرت إليها بدهشة وخجل.

ـ هاك هذه الأشياء. بع الساعات واحتفظ بثمنها. لا تقل شيئاً لأحد. حاول أن تبيعها بحذر حتَّى لا يعرف قابيل. إن العمَل مع المهربين لا يدوم. ابحث لك عن عمل آخر.

الكلمات التي كنت أفكر أن أقولها لها تضيع مني قبل أن ألفظها. وزعت الساعات والورقتين على جيوب سروالي وكبوطي. نظرت إلى المفتاح في القفل وسألتها:

ـ هل ستقفلين الباب من الداخل؟

ـ نعم.

فتحت الباب وخرجت. حين التفت ورائي رأيتها واقفة على عتبة الباب تمسح عينيها. توقفت. أحسست أننا نتوادع لآخر مرة. قد لا أراها أبداً. فتاة عين قطيوط، أسية، فاطمة، لم أر إحداهن بعد. استأنفت سيري. لم أستطع أن ألتفت نحوها مرة أخرى. عيناي تدمعان. غمرني إحساس أنها ما زالت واقفة في إطار الباب تتأملني لآخر مرة. قوة نفسية تمنعني من أن ألتفت إلى الخلف. فكرت أن هذه القوة التي تمنعني من الإلتفات والرجوع إلى الكوخ ربما هي نفس القوة

التي تبقيها واقفة تتأمل اختفائي دون أن تستطيع هي أيضاً اللحاق بي لنرجع معاً إلى الكوخ أو لنمضي إلى مكان مجهول. أودع الكوخ لآخر مرة. ربما ايضاً لن أرى أحداً من رفاق الكوخ[1].

(١) أكتب هذه المذكرات في سنة ١٩٧٢. لم أر حتَّى الآن سلافة وصديقتها بشرَى. لقد مضت عشرون عاما. أخبرتني امرأة في سنة ٦٣ أن سلافة وبشرَى دخلتا معاً بورديل بوسبير في الدار البيضاء لتحترفا الدعارة رسمياً في نفس سنة ٥٢. بعد شهور تزوجت بشرَى نادل مقهًى من مدينة الجديدة. بعد فشل زواجها عادت إلى نفس البورديل مع سلافة. لا أدري أين هما الآن.

١١

كنت جالساً مع ليلَى البوالة في غرفتها. لـلازهـور، صـاحبة الـدار، تخدمنا، أحيانـاً، بنفسها. منذ أن غادرت الكوخ وأنا أسكر. الفتيـات في الطابق الأسفل لا يكففن عن الثرثرة. ضاجعت خلال ليلتين ثلاثـاً منهن. رشيـدة أفضلهن. تتلوى في الفراش مثـل حيـة. قـال لي حميـد الزيلاشي عن ليلَى البوالة بأنها تبول في الفراش أثنـاء النوم. حـدث له معها ذلك ذات ليلة. سأنام معهـا الليلة لأرى إن كانت حقـاً تبول في الفراش. صبت ثمالة النبيد من الزجاجة في الكأسين وقالت:

ـ سنطلب زجاجة أخرى، أليس كذلك؟

قلت لها شارداً:

ـ سنطلب زجاجة أخرى. أخرى وأخرى حتّى نسكر.

قامت ووقفت على عتبة الباب رافعة الستارة بيدها ونادت:

ـ للازهور، آجي عندنا.

تركت الستارة تنسدل والتفتت إليّ قائلة:

ـ مالك؟ إنك مهموم. هل وقع لك شيء؟ ألست مسروراً معي؟

قلت لها مع نفسي: ليس هنـاك ما يفعـل في هذا الزمان غير أنت

والخمر. أنت أو سواك. نظرت إليها باسماً:

ـ أفكر في بعض الأشياء.

ـ مثل ماذا هذه الأشياء..؟

جلست وابتسمت لي. أكره أن أتكلم حين لا أريد. أشعلت سيجارة وضعتها في فمي ثم أشعلت أخرى لنفسها. فكرت: هذه الحركة أفضل من الكلام عن لا شيء. تذكرت سلافة. تأملت جسدها. جسدها أكثر امتلاء من جسد سلافة وأجمل. شعرها طويل، أسود وأملس. سأتغطَّى به. نزهت عيني في جسدها كله. قالت:

ـ مالك تتأملني هكذا؟ ألا أعجبك؟

أكره المرأة حيت تعتبر نفسها مثل سلعة.

ـ قلت لك بأني أفكر في بعض الأشياء.

ـ لا تفكر كثيراً في هذه الأشياء. إنك تبدو حزيناً. أهي امرأة تحبها؟

ـ لا أعرف بعد ما هو الحب.

قالت للازهور قبل أن تدخل:

ـ ها أنا جئت. خير إن شاء الله.

طلبت منها ليلَى أن تدخل. فاحت منها رائحة عطر عربي قوية.

ـ ها أنا. ليلة سعيدة.

قالت ليلَى:

ـ اعطينا زجاجة أخرى.

قلت لها:

ـ سأبيت مع ليلَى. كم؟

ـ ستون بسيطة فقط. لغيرك لا أقل من مائة بسيطة.

دفعت لها الستين والخمس والعشرين ثمن الزجاجة الأخرى.
صوت فتاة تنادي من الطابق الأسفل على للازهور.

ـ أنا جاية.

ثم قالت:

ـ أف! كم تصرخ رشيدة!

قالت وهي تهم أن تخرج:

ـ سأرسل لكما الزجاجة مع رشيدة أو عليوة العروسية.

خطوات ثم دقتان على الباب. قالت للازهور:

ـ من؟

قال الصوت الذي أعرفه جيداً:

ـ أنا، هل ممكن؟

أزاحت للازهور الستارة جانباً وظهر القندوسي. قالت له للازهور:

ـ جانا الخير. أنت هو إذن. يعيش من يراك. ما هذه الغيبة. غبت عنا كثيراً.

قال لي:

ـ أنت هنا مختبىء وأنا أبحث عنك كالأحمق في كل مكان. هيا. قم.

قالت للازهور بلطفها كالعادة:

ـ آلسي القندوسي، اجلس معنا شوية. اشرب شي حاجة.

اعتذر لها ووعدها أن نعود غداً أو بعد غد.

عندما قمت سألتني للازهور:

ـ وأنت، هل ستعود هذه الليلة؟

قلت لها تلقائيا:

ـ طبعاً سأعود. ألم أدفع لك ثمن المبيت مع ليلَى؟

قالت:

ـ دق على الباب إذا وجدته مقفلاً.

سألتني ليلَى:

ـ متَى ستعود؟

نظرت أنا إلى القندوسي وقال لها بمرح:

ـ سيعود وقتما يشاء. إذا تأخر فنامي، لكن وحدك وليس مع زبون آخر.

ابتسمت ليلَى. قالت للازهور:

ـ كن مطمئناً على صديقك. ليس لنا سبعة وجوه. وجهنا واحد مع الجميع.

هبطنا وتركنا للازهور مع ليلَى. سألته في الدرج:

ـ أين هو الكبداني؟

ـ هذا ليس مكان الكلام. ستعرف كل ما حدث عندما نخرج.

في أزقة حي بني شرقي التقينا بكثير من السكارى. أحياناً يتوقف ليصافح أحدهم. اكتشفت أنه يعرف كثيراً من الناس. كلهم يسلمون عليه باحترام وود. كنا نسير دون أن نتكلم. عندما وصلنا ساحة السوق الداخلي سألني:

ـ في أي مقهَى تريد أن نجلس؟ في الفوينتس؟ في السنترال أو في لا اسبانيولا؟

تركت له الخيار. دخلنا السنترال. قبل أن نجلس طلبت كأس كونياك وطلب هو كأس جين. جلسنا في ركن خال. سألني:

ـ لكن أين كنت؟ لقد فتشت عنك في كل مكان.

ـ هنا في طنجة. أين تريد لي أن أكون؟

ـ وأين تنام؟

ـ عثرت على محل اقامة في القصبة، في طريق بنعبو.

ـ أليست هي الدار الملاصقة للمدرسة؟

ـ تماماً.

ـ أنك تسكن في مأوى اللصوص والمغامرين والبغايا.

ـ في الفنادق الأخرى طلبوا مني أوراق التعريف. أنا لا أملك أية أوراق.

صب لنا النادل الاسباني المشروبين في كأسين صغيرين. انسحب النادل وقال لي:

ـ الكبـداني مات .

قلت بصوت ضعيف، فاتحاً عينيّ، فاغراً فمي :

ـ مات؟

ـ نعم مات . رحمة الله عليه .

شربت كأسي دفعة واحدة ثم ناديت على النادل . أشعلت سيجارة . شرب القندوسي كأسه .

قلته له :

ـ زجــاجـة كونياك كاملة .

وافق على أن نشرب معاً نفس الشراب .

ـ كيف مات؟

ـ عندما عاد كان المركب قد فرّ من زورق الجمرك . اضطر الكبداني أو يعود إلى الشاطىء . لقد اصطدم زورقه مع الصخـور . عثروا عليـه ميتاً وزورقه انقذف محطماً إلى الشاطىء .

جاءنا النادل بزجاجة التري . ملأ لنا الكأسين وانصرف .

سألته عن قابيل .

ـ مقبوض .

ـ لماذا؟

ـ يريدون أن يثبتـوا عليه مـوت الكبداني . أنهم يعـرفون أنـه يعمل معه .

ـ والمركب؟

ـ أوقفه رجال الجمارك وفتشوه ثم سرحوه .

ـ وهل اعترف قابيل بشيء؟

ـ حتّى الآن لم يعترف لهم بشيء .

شربت كأسي وملأته .

ـ أنك ستسكر إذا استمررت بهذا الشكل . (أضاف) : قل لي، لماذا تركت المفتاح لسلافة؟

ـ هي التي طلبتـه مني . لم أستطع أن أرفض . لقـد كـانت هي التي تحكم في الكوخ .

ـ أعـرف هذا . (أضـاف) : لقد هـربت . جمعت مـا استطـاعت أن تحمله معها وغادرت .

ـ إلى أين؟

ـ لا أعرف . ما هو مؤكد هو أنها غادرت طنجة . هكذا تنتهي دائمـاً العشرة مع القحاب .

ـ وبشرى؟

ـ لا بـد أن تكون قـد هـربت معهـا . أنهما لا تفـترقـان منـذ كـانتـا صغيرتين .

فكرت : لا بد أنهما ذهبتا معاً إلى الدار البيضاء . نـظرت إلى ساحة السوق الداخلي والمقاهي الغاصة بالليليين والسكارى وقلت له :

ـ لقد عادت الحالة إلى طبيعتها بعد الحادث المشؤوم .

ـ لكن الحالة السياسية ليست بخير في المغرب كله . لا بد أن تحدث

حوادث أخرى أعنف من حادث ٣٠ مارس.

لقد جاء الأوان الذي سيطالب فيه المغاربة بالاستقلال.

ـ الكبداني كان قد قال لي بأنه لم تمر غير ست جنائز والناس يعرفون أن عشرات من المغاربة قد قتلوا.

ـ هذا صحيح. لقد بدأت تظهر بعض الجثث التي يقذف بها البحر إلى الشواطىء.

ـ رموا اذن في البحر جثث الذين ماتوا في الحادث.

ـ معظم الناس يعتقدون أنهم رموا بعض المغاربة أحياء وجرحَى في أكياس. بعض الجثث لم يكن ظاهراً عليها أية آثار للرصاص. عثر الناس على جثة شاب سليمة في شاطىء العرائش والقيد ما زال في يده.

ـ غريب.

ـ من المحتمل أن تظهر جثث أخرى.

شرب كأسه وقال:

ـ الحديث في هذه القضية طويل. عندي خمسمائة بسيطة أجرة عملك في تلك الليلة. كنت سأعطيها لك في هذه الليلة لكن من الأفضل أن أعطيها لك غداً.

ـ كما تريد.

ـ سأتركها لك عند سيدي مصطفى، صاحب قهوة الرقاصة. أنه رجل طيب وأمين، هل تعرفه؟

ـ نعم، لقد ترددت على قهوته مرات.

فكرت: أنه يشفق عليّ أن أبددها في هذه الليلة.

ـ عندي شيء آخر أقوله لك.

ـ ما هو؟

ـ ينبغي لك أن تحافظ على سرية عملنا. أن الحمالين الثلاثة الذين عملوا معنا رجال شجعان. لا خوف منهم، لكننا لا نعرف ما قد يحدث. إذا قبضوا عليك واستجوبوك فأنكر تماماً أنك اشتغلت معنا. قد يضربونك، لكن عليك أن تصمد.

قلت معتدا بنفسي:

ـ كن مطمئناً.

ـ من حسن الحظ أنك لست معروفاً بين الحمالين الذين يعملون في التهريب.

ـ ألا تظن أن قابيل قد يعترف إذا هم عذبوه كثيراً؟

ـ أنهم حتماً سيضربونه، لكني لا أظن أنه سيعترف لهم.

ـ والسلعة؟

ـ سلمناها لصاحبها الهنداوي في نفس الصباح.

بعد لحظة قال:

ـ من الأحسن أن تذهب وتنام الآن في فندقك، لكن حاول أن تغير مكان اقامتك. سأحاول أن أعثر لك على سكنَى لا يتعدى ثمن كرائه خمسين بسيطة في الشهر.

ـ والكوخ، من ينام فيه الآن؟

ـ لا أحد. لقد تركت سلافة المفتاح عند بقال الحي الـذي يتعامـل معه قابيل. لم يعد صالحاً لشيء ذلك الكوخ بعد أن قبضوا على قابيل.

ـ تقصد أن الكوخ ربما أصبح مراقباً من طرف الشرطـة.

ـ من يعرف! محتمل.

نهضنا. الزجاجة ما زالت منصفة. قلت له:

ـ هل تسمح أن آخذها معي؟

ـ خذها، لكن إياك أن تعود عند ليلَى البوالة هذه الليلة.

ـ لا أفكر في ذلك. سأذهب لأنام.

ـ أنك ما زلت شاباً وأيام الله طويلة.

تركته يدفع للنادل الحساب ووقفت خارج المقهَى أنتظره. صـافحني قائلاً.

ـ أظن أنك تستطيع أن تذهب وحدك إلى فندقك.

ـ لم أعد طفلاً.

ابتسم وانصرف. سلكت طريق التجارة. التقي في الدروب ببعض السكارى والبغايـا واللوطيين. السـاعة حـوالي منتصف الليل. أتـرنح قليلاً.

في درج جنـان قبضان اعـترضني شاب سكـران. الطريق خـاليـة. التفت خلفه وقال لي:

ـ آ! الغزال ! فأين ماشي؟

ـ شغلك؟

قال بهزء مادا يده إلى الزجاجة:

ـ وهذه الزجاجة في يدك، ألا نشربها معاً؟

قلت له بحدة:

ـ اطلق يدك وامشي فحالك.

تجنبته لأمر. اعترضني بوقاحة قائلاً:

ـ أنـا أسكن قريبـاً من هنا. في درب زينـانة بالذات. تعـال معي. سنقضي الليلة معاً. (أضاف بغزل سخيف، محاولاً أن يلمس وجهي): لماذا أنت هكذا صعب؟.

قلت له بغضب:

ـ ماذا تريد مني بالضبط؟

ـ أن نقضي الليلة معاً.

قلت له ماسكاً الزجاجة من عنقها في يدي:

ـ لماذا لا تنام مع أمك أو أختك؟

صرخ كوحش:

ـ تسب لي الوالـدة. لم تبق إلاّ أنت في حسابي.

تراجعت قليلاً إلى الوراء وهو يقترب مني. سدد لي ركلة إلى أسفـل بطني. تقوست حامياً أسفل بـطني بيـدي من ضربة أخـرى ونجوم الألم تدور أمام عينيّ. ركلني مـرة أخرى في نفس المكـان. سقطت متكـوراً عـلى الدرج. تكسرت الـزجاجـة. بقي عنقها في يـدي. تفاديت ركلة

سددها إلى وجهي. أصابتني في يدي التي حميت بها وجهي. ركلات أخرى. أحاول ألا تصيبني احداها في وجهي. صوت شابة تقول له من نافذة:

ـ كفاه! لا تضربه هكذا. أنه أصغر منك.

تفاديت ركلة قوية. فقد توازنه وسقط على قفاه. استجمعت قواي وقمت بسرعة وركلته في وجهه.

الشابة تقول:

ـ كفاكما! ستقتلان بعضكما.

يحمي وجهه وأنا أركله. حين ضربته بعنق الزجاجة على يديه اللتين يحمي بهما وجهه صرخ مثل حيوان:

ـ أيما وجهي! أيما وجهي! يلعن دينك!

هربت وتركته يصرخ ويسبني. قالت الشابة:

ـ هذا ما كنتما تريدانه. هذا ما تريدانه.

سقطت مرات في الدرج. الدم يسيل من وجهي وركبتي ويدي التي أمسك بها عنق الزجاجة. كنت ما زلت أسمع صراخه عندما بلغت باب العصا. أخرجت منديلي ووضعته على أنفي. الدم يسيل من أنفي وفمي.

في مدخل درب بنعبو عثرت في العتبة ووقعت. تركت المنديل وعنق الزجاجة هناك. بذلت آخر جهدي لأبلغ باب الفندق. النافذة مفتوحة والغرفة مضاءة. ناديت بصوت مخنوق:

ـ الزيلاشي! انزل بسرعة!

أطل عليّ هو ونعيمة وفوزية. قال:

ـ محمد، مالك؟

ـ انزل بسرعة!

بعد لحظة فتح الباب ورأيته أمامي عاري القدمين ماسكاً سكيناً في يده.

ـ مالك؟

قلت له ماسحاً دم وجهي بكم كبوطي:

ـ تعاركت مع سكير. أعتقد أنه يتبعني.

أطل بوشتا من النافذة:

ـ أنا نازل.

سألني الزيلاشي:

ـ هل هو وحده؟

قلت باصقاً دمي:

ـ نعم.

ـ أتمنّى أن يكون قد تبعك.

أترنح راكضاً خلفه. عند المنعطف قلل من سرعته. توقف وأطل بحذر على مدخل الدرب ثم ركض وتوقف مرة أخرى عند المنعطف الذي يؤدي إلى ساحة القصبة. سأل:

ـ أين تركته؟

ـ في درج جنان قبطان.

لحق بنا بوشتا. هو أيضاً كان حافي القدمين، ماسكاً هراوة. لم نجده. قالت لنا نفس الشابة من النافذة:

ـ لقد ذهب. كونوا عاقلين. إنكم أيقظتم سكان الحي.

نساء ورجال يطلون علينا من النوافذ والسطوح. بقعة دم في المكان الذي تركته فيه. تتبعنا آثار الدم عدة أمتار ثم توقفنا عند آخر نقطة من الدم. قال الزيلاشي:

ـ ليتنا نعرف من أين يكون قد سلك.

قلت له:

ـ كفَى. لنرجع.

ـ لقد أفلت ولد القحبة.

في طريق عودتنا إلى الفندق قصصت عليهما من بداية اعتراضه طريقي حتَّى اللحظة التي ضربته بعنق الزجاجة وهربت. بوشتا يمشي إلى جانبنا صامتاً. أعرف أنه لا يستطيع الإقتراب حتَّى من دجاجة تحضن بيضها. مع ذلك وجوده معنا مشجع على مواجهة أية مفاجأة. سألني حميد:

ـ هل تعرف تلك الشابة التي كانت تكلمنا من النافذة؟

ـ لا، من تكون؟

ـ اسمها فتيحة الشريفة. زوجها كان شرطياً مسلولاً يتداوى في منزله. كان يتردد عليه أحد أصدقائه من الشرطة. كانت تدخن وتشرب بإفراط مع صديق زوجها. أحياناً يدخن ويشرب معها حتَّى

يتقيأ الدم. أظن أنه كان يعرف أن زوجته تخونه مع صديقه. ذات ليلة أخذ يغازلها أمامه. أراد أن يطعنه بسكين، لكن صديقه أخرج مسدسه وأطلق عليه النار.

سألته:

ـ وهل قتله؟.

ـ مات في المستشفى.

ـ وهي، ماذا فعلوا لها؟

ـ أجروا معها تحقيقاً وسرحوها.

قال بوشتا:

ـ حكاية النساء في الحب دائماً قذرة.

قال حميد:

ـ لها معه طفلتان. لقد رباها المسيحيون حتَّى جعلوا منها ممرضة في مستشفاهم التبشيري. تعرف ثلاث لغات أجنبية، لكن عقلها في فرجها مثل معظم النساء.

رأينا نعيمة المسرارة وفوزية العشاقة تطلان علينا من النافذة. قال حميد:

ـ نعيمة، افتحي الباب.

قالت:

ـ الباب غير مسدود. ادفعه.

عندما دخلنا سمعت أصواتاً وضحكات وشتائم داعرة. أدركت أن

بعض النزلاء ما يزالون يسهرون في الطابق الأسفل والأعلَى. خرج الحارس الليلي من حجرة في الطابق الأسفل والسيجارة في فمه. يبدو عليه أنه يشرب مع الجماعة الساهرة في تلك الحجرة. سألنا:

ـ هل الأمور بخير؟

قال حميد:

ـ يلعن دين الحياة والذي يحبها.

صعدنا الدرج وتركناه واقفاً يتأملنا. دخلنا غرفتنا الكبيرة، التي جعل منها صاحب الفندق ثلاث غرف صغيرة بواسطة حاجزين خشبيين. كانوا يسهرون في غرفتي. حميد الزيلاشي وبوشتا يسهران، أحياناً، في غرفتي حتّى في غيبتي. كانت الغرفة الوحيدة في الفندق التي لها نافذة تطل على درب بنعبو. قال بوشتا لصديقته:

ـ فوزية، اهبطي إلى المطبخ وسخني بعض الماء في الغلاية.

تنبه حميد إلى تمزق سروالي عند الركبة وقال:

ـ آجي معاي إلى الغرفة الأخرى.

دخلنا غرفته وفتح حقيبته. أخرج سروالاً من الصوف ومده لي قائلاً:

ـ انتظر حتّى تأتي فوزية بالماء الساخن لتنظف لك جروحك.

طلبت كأس كونياك. جاءت فوزية حاملة المغلاة. قالت نعيمة:

ـ ها هو الكونياك.

طلبت مني فوزية أن أخلع ثيابي. ترددت. قالت:

ـ هل أنت حشمان؟

خلعت كبوطي وسروالي أمامهما وبقيت في الكلسون والقميص. مرفقي الأيسر منسلخ وملطخ بالدم. تركت لهما نفسي وتعاونتا على تنظيف جروحي بالماء الساخن والكونياك.

كان حميد يفتح زجاجة كونياك أخرى عندما سمعنا دقات قوية على الباب. أردت أن أنهض لأفتح الباب لكن حميد أمسكني قائلاً:

ـ أجلس مكانك. لابد أن يكون قواد هو الذي يدق بهذا الشكل.

ترك الزجاجة من يده وقام. دقات أخرى قوية على الباب. قال حميد:

ـ من يدق؟

قال صوت بخشونة:

ـ افتح الباب.

شحب وجها نعيمة وفوزية. قالت نعيمة:

ـ البوليس. لا يمكن أن يدق الباب هكذا إلا البوليس.

قال لي بوشتا:

ـ خبي الزجاجة في مكان ما.

كنت جالساً على المطربة. بوشتا وفوزية ونعيمة كانوا جالسين على الفراش. أبقيت الزجاجة في يدي. لقد اضطربت. نهضت وأطللت من النافذة. رأيت شرطيين باللباس الرسمي واقفين قدام الباب. فتح حميد الباب ودخل شرطيان سريان. قال الأول:

ـ لماذا لم تفتح بسرعة؟ تكلموا.

طلب مني الزجاجة وأعطيتها له. فحصها قائلاً:

ـ تشربون كونياك تري إذن. أوراقك.

ـ لا أوراق لي.

التفت إلى بوشتا:

ـ وأنت.

أخرج بوشتا ورقة التعريف الشخصي ومدها له. تأملها ووضعها في جيبه. التفت نحو الفتاتين وقال لهما:

ـ تقحبان في هذه السن الباكرة. البسا جلابيكما بسرعة.

قيدني الشرطي الثاني مع الزيلاشي. في الطابق الأسفل وجدنا هناك ثلاثة شبان وفتاتين يحرسهم شرطي سري. إثنان مقيدان مع بعضهما. أمسك الشرطي يد بوشتا وقيدها مع يد الشاب الذي كان ينتظر شريكه في القيد. نحن الستة سرنا إلى الأمام والفتيات خلفنا غير مقيدات سلكنا الطريق التي تقود إلى القصبة. صاح شرطي في شابين يتهامسان وراءنا:

ـ كفَى من الكلام.

في ساحة القصبة كانت هناك سيارتا جيب. ركبنا نحن في سيارة وركبت النساء في الأخرى. ركب معنا ثلاثة شرطين وركب الإثنان الآخران في الثانية. فكرت: أننا صيد ثمين لهم هذه الليلة. كنا متزاحمين في السيارة.

في سوق الزراع اتجهت بنا سيارتنا نحو القسم الجنائي واتجهت

السيارة الأخرى نحو السوق البراني. لا شك سيذهبون بهن إلى مخفر السوق الداخلي.

أدخلونا إلى مكتب وفتشونا الواحد تلو الآخر. خلعوا لنا الأحزمة وسيور الأحذية والدراهم وتركوا لنا السجائر والوقيد. وجدوا عند أحد الثلاثة الذين قبضوهم معنا مقشطاً صغيراً. قال له الشرطي الذي فتشه:

ـ وهذا، ماذا تفعل به؟ تكلم. سنرى فيما بعد.

بعد أن سجلوا أسماءنا، قادنا، أنا والزيلاشي، شرطي في ممّر صغير والمفتاح في يده. توقفنا عند باب. قبل أن يفتحه لحق بنا شرطي كان قد ركب معنا في السيارة. فتح الشرطي الباب ودفعنا الآخر الذي كان يحرسنا في السيارة إلى داخل حجرة مضاءة. كان هناك ثلاثة مساجين آخرين. استيقظ إثنان منهم وظل الثالث نائماً. فك لنا الشرطي الذي دفعنا القيد ثم انسحب بسرعة وأغلق علينا الباب بعنف. فكرت: إن كل حركة هنا تشكل نوعاً من العقاب. دلكت رسغي الأيسر الذي كان يؤلمني قليلاً. تأملت الباب المصفح وفكرت: إن هذا الباب أكثر صلابة من البابين اللذين أغلقا عليّ من قبل. الأبواب تزداد صلابة. أخيراً ها أنا في سجن حقيقي. قال لي حميد الذي جلس على الأرض واضعاً ذراعه على ركبتيه:

ـ اجلس. (ثم أضاف): كل هذا يحدث بسبب الخمر والنساء في بلد مسلم يحكمه النصارى. لسنا مسلمين ولسنا نصارى.

جلست الى جانبه قبالة الشابين المستيقظين. كانت الأرض باردة كالثلج. على الجدران وفي السقف علامات الرطوبة. في ركن كان هناك مرحاض مسطح وصنبور فوق ثقب المرحاض. فكرت: إن كل

ما يحتاج إليه الواحد هنا يشكل عقاباً قاسياً.

بدأت الرائحة الكريهة تغثيني وأنا أتأمل المرحاض. أعطاني حميد سيجارة شقراء ثم أعطى سيجارتين للشابين. كان الثالث الذي لم يستيقظ ينام في وضع مقرفص. سأل حميد أحدهما عن الشاب النائم:

ـ ماله؟

قال له:

ـ سكران.

ـ أحسن له في هذا البرد.

كانا يرتعشان بردا. سأل حميد:

ـ منذ متى وأنتما هنا؟

قال نفس الذي تكلم من قبل:

ـ قبضونا هذا المساء. كنا نلعب الورق في قهوة دبو.

كان الشاب الآخر يدخن في صمت خافضاً رأسه. لم يكن يرفع رأسه إلا ليرشف رشفة عميقة من سيجارته ثم يخفض رأسه إلى الأرض. الدخان ينفثه ضعيفاً كالزفير في صباح بارد.

في الصباح بدأنا كلنا نرتعش برداً. نخفي وجوهنا بين الركبتين كلما قام أحدنا ليتغوط أو يبول. الرائحة الكريهة تزداد في المرحاض. أنا وحميد والشاب الثالث الذي وجدناه في الليل نائماً شربنا كثيراً من الماء. دائماً يحدث لي مثل هذا العطش في الصباح حينما أسكر. وقف حميد وأخذ يقوم بحركات رياضية. كان مرحا. قال لي:

ـ قم وافعل مثلي إذا أردت أن تتدفأ.

قلت له بتعب:

ـ ليس الآن.

الأشخاص الآخرون يتطلعون إليه كلما قام بحركة عنيفة. كنت أنظر إليه باستمرار. قال لي:

ـ انهض. إنك كسول. ليس أحسن من هذه الحركات لطرد البرد والتعب.

ـ إن جروح ركبتي ومرفقي تؤلمني. سيسيل منها الدم إذا أنا قمت بنفس هذه الحركات.

بدأ يلهث وحركاته تثقل وتتباطأ. ذهب إلى ثقب المرحاض وبصق. فتح صنبور الماء وغسل وجهه ويديه ومسد شعر رأسه بقليل من الماء. أقعَى وبال وغسل عضوه ويده التي أمسك بها شيئه. شرب قليلاً من الماء وعاد يجلس في مكانه واضعاً يديه فوق ركبتيه. كانت قطرات الماء تتساقط من أطراف أصابعه وذقنه. خفض رأسه. تنفسه يهدأ. رفع رأسه إليّ. تبادلنا نظرات باسمة ثم أطلق ضحكة عالية. لم أستطع أنا أيضاً أن أكتم ضحكتي. قال:

ـ أولاد القحاب. اصطادونا كما تصطاد القطط الفئران.

سألته:

ـ أين تظن أنهم أخذوا الفتيات؟

ـ إلى كوميساريا السوق الداخلي.

ـ هل تعتقد أنهم سيحاكموننا بتهمة الفساد؟

ـ لا أعتقد. إننا لم نقم بأية فوضَى. لقد وجدونا نسكر فقط مع قحبتين.

ـ كم من أيام تظن أننا سنبقَى هنا؟

ـ حتّى يوم الاثنين أو الثلاثاء. على الأكثر. اليوم السبت.

بعد لحظة قال:

ـ أنت محظوظ. (أضاف): وكذلك بوشتا. إنه مجرد خياط.

قلت له بدهشة:

ـ أنا محظوظ؟

ـ نعم. ليس لك سوابق ولم تدخل قط السجن. أما أنا فلي سوابق وقد يتهمونني بسرقة جديدة لم أرتكبها.

ـ لماذا لم يحبسوا بوشتا معنا هنا؟

ـ إنها مجرد صدفة. ما أظنهم أخذوه إلى حجرة أخرى عمداً. سيسرحونه هو أيضاً يوم الاثنين أو الثلاثاء.

ـ بهذه السهولة؟

ـ سترى. أنا أعرف جيداً كيف يتصرفون.

بعد لحظة سألته:

ـ ونعيمة وفوزية؟

ـ هما أيضاً ستخرجان. في أسوأ الأحوال سيرغمونها على الدخول إلى البورديل اجبارياً لكي تخضعا للمراقبة الطبية مرة كل أسبوع. أعتقد أن بوشتا سيتزوج فوزية.

ـ هل يحبها؟

ـ لا أدري، لكنه قال أنه يريد أن يعيش معها.

ـ وأنت؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ علاقتك مع نعيمة.

دَوَّرَ سبابته على صدغه وقال:

ـ أنت أحمق. إنها مثل بقية القحاب اللواتي عرفتهن. لم أخلق لأتزوج قحبة.

سمعت خطوات قرب الباب. التفتنا جميعاً صوب الباب. فتحت الكوة الصغيرة. فتح الباب بصخب وسرعة. فكرت: أنهم يتعمدون مثل هذا الصخب والسرعة ليخيفونا. هذا الفعل يشكل أيضاً جزءاً من العقاب.

دخل رجلان هرمان: واحد يحمل غلاية كبيرة وقفة فيها أكواب من الصفيح والآخر كيساً أبيض من القماش فيه خبز. حيانا الرجلان ووقف شرطي خلفهما. تسلمنا منهما خبزة وكوب شاي أخضر لكل واحد منا. قال لنا الشرطي:

ـ لكم ربع ساعة لتفرغوا الأكواب.

انسحب الرجلان واقفل الشرطي الباب. الكوة الصغيرة تركت مفتوحة. كان الشاي والخبز الأسود ساخنين. كنا نأكل صامتين. قال لي حميد:

ـ اترك نصف خبزتك للمساء. أنهم لا يعطون شيئاً آخر حتّى الغد في مثل هذه الساعة.

هززت له رأسي. بعدما انتهينا من الأكل أعطَى حميد سيجارة

للآخرين ليدخنوها فيما بينهم. هو وأنا تناوبنا على تدخين سيجارة أخرى. الشابان اللذان قبضوهما في قهوة دبو لم يتركا شيئاً من خبزهما. الشاب الثالث وفرّ أكثر من نصف خبزته. كذلك فعلت أنا وحميد. قمت إلى الصنبور وشربت كثيراً. في الصباح يحل العطش محل شهية الأكل. هذا ما يحدث لي كلما سكرت. ندخن في صمت. الدفء يشيع في جسمي. ندخن ونحسو بقية الشاي جرعة تلو جرعة. ربما الكوة المفتوحة هي التي فرضت علينا هذا الصمت. فكرت: كيف ستصير حياتنا في المستقبل لو كان محكوماً علينا أن نقضي حياتنا في هذا الوضع وفي هذه الحجرة؟ لا شك أننا سنظل نمثل أدوار حياتنا حتى نمل ماضينا وحاضرنا. سننتهي إلى صمت أبدي. سنختفي الواحد أثر الآخر. أتعسنا هو الأخير في الاختفاء.

فتح الباب ودخل الرجل الذي حمل لنا الشاي. وقف شرطي الحراسة خلفه. شربنا ثمالة الأكواب بسرعة ووضعناها له في قفته التي حملها معه. كان فيها أكواب أخرى. قال لنا منسحباً:

ـ الله يعفو عليكم وعلينا.

قال له بعضنا:

ـ آمين!

أغلق الشرطي الباب والكوة بصخب. فكرت: لم تعد هذه الحركات العنيفة تثير في أية رهبة. مع الزمن قد لا تثير حتىّ الالتفات إليها، وكذلك وضعنا هذا.

أخرج حميد قلم رصاص صغير وأخذ يكتب على الحائط. سألته:

ـ ماذا تكتب؟

ـ أكتب بيتين للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي.

ـ ماذا يقول هذا الشاعر؟

ـ هذا ما يقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي   ولا بد للقيد أن ينكسر

قلت له بإعجاب:

ـ عظيم.

ـ هل تفهم ما يقول؟

ـ كلا، لكنه عظيم. أُحس أنه عظيم. (أضفت): ما معنَى الذي يقوله؟

ـ إرادة الحياة، هذا هو معنَى ما يقوله.

ـ وما معنَى إرادة الحياة؟

ـ إرادة الحياة معناها هو أنه إذا كان هناك شعب مستعبَد أو إنسان ما وأراد أن يتحرر فإن الله يستجيب له، والفجر يستجيب والقيد يتهرس بقوة إرادة الإنسان.

ـ إنني أفهم الآن.

لاحظت أن الرفاق كانوا يتبعون باهتمام ما يقوله حميد. قلت له:

ـ إنك محظوظ.

قال مندهشاً:

ـ أنا محظوظ؟

ـ نعم، أنت محظوظ.

ـ لماذا؟

ـ لأنك تعرف كيف تقرأ وتكتب.

ـ أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم إذا شئت.

كتب شيئاً آخر على الحائط وسألني، واضعاً رأس قلم الرصاص القصير على الحرف الأول:

ـ ما هذا؟

ـ لا أدري.

ـ هذا ألف.

ثم أشار إلى الحرف الثاني:

ـ وهذا؟

ـ لا أدري.

ـ هذا حرف باء. وهذا؟

ـ التاء.

سألني بدهشة:

ـ كيف عرفت؟

ـ لأنني سمعت الناس دائماً يقولون: ألف، باء، تاء....

ـ عندك الحق.

رددت معه الحروف الثلاثة وقال:

ـ من هذه الحروف الثلاثة يمكن لنا أن نستخرج بعض الكلمات مثل: أب، باب، بات، ألخ...

جلس وقال:

ـ ذات يوم سأعلمك القراءة والكتابة. عندك استعداد لكي تتعلم.

طلبت منه أن يعيد عليّ البيتين للشاعر التونسي عدة مرات حتّى حفظتهما.

في المساء، أخذ الشاب الثالث يتمشّى في الحجرة متوتراً. كنا جالسين صامتين. أمسك كسرة خبزه التي وفرها في الصباح وفتتها ثم رماها في ثقب المرحاض. نظرت إلى حميد. قال لي بهمس:

ـ ليس شغلنا. ليفعل بخبزه وبنفسه ما يشاء.

كان الشابان يتأملان الشاب العصبي بغضب. فكرت: ستحدث مشادة إذا أتى هذا الشاب بحماقة أخرى.

قال له أحد الشابين:

ـ لماذا رميت الخبز في المرحاض؟

أجاب بحدة:

ـ أنا حر في أن أفعل بخبزي ما أشاء.

ـ لكنك رميت نعمة الله.

ـ أنا حر. بيني وبين الله.

ـ إنك خراء.

ـ أنت هو الخراء.

خطَى خطوتين وراح يضرب يديه ورأسه مع الحائط حتَّى سقط مغشياً عليه والدم يسيل من جبهته ويديه. قام حميد ودق على الباب بعنف. فتحت الكوة وسأل شرطي الحراسة:

ـ ماذا وقع؟

ـ هناك واحد ضرب نفسه مع الحائط. الدم يسيل منه.

عاد ليجلس وقال:

ـ هذا فقط ما يجب علينا أن نفعله.

قال نفس الشاب الذي كان قد عاب عليه ما فعله بخبزه:

ـ هذا هو عقاب الله في حينه.

فتح الباب ودخل شرطيان سريان وشرطي الحراسة باللباس الرسمي. سأل الشرطي السري الأول:

ـ ماذا وقع هنا؟

قال له حميد:

ـ فتت كسرة خبزه ورماها في المرحاض ثم طفق يضرب رأسه ويديه مع الحائط.

سأل الشرطي الثاني:

ـ وماذا حدث قبل ذلك؟

قال له حميد:

ـ لا شيء.

ـ ألم يتشاجر مع أحد؟

نظر حميد نحونا ثم التفت إليهم:

ـ أبداً. إسألوه عندما يفيق.

إقترب الشرطي السري الأول وتأمل لطخات الدم على الحائط. قال الثاني:

ـ سنَرى فيما بعد أن لم يكن قد تخاصم مع أحدكم قبل أن يضرب نفسه.

كان هامداً والدم ينزف من جروحه. خرجوا وأقفل الباب. تركت الكوة مفتوحة. بعد حوالي ربع ساعة دخل الشرطة الثلاثة ورجلا إسعاف وحملاه في نقالة. كان ما زال مغمى عليه. تخلفت في مكانه بقع دم. أغلق الباب وتركت الكوة مفتوحة. قلت لهم:

ـ لا بد أنه مريض.

قال حميد:

ـ ليفعل بنفسه ما يشاء. (أضاف): يبدو أنه مدمن على الخمر أو الكيف.

قال الشاب الأول:

ـ إنه سخط اللّه أو سخط الوالدين.

قال الثاني:

ـ كل واحد يعاقبه الله على أفعاله.

كانت سجائرنا قد نفدت. الأعقاب التي رميناها كانت قصيرة جداً. التقطت واحداً ودخنته.

صباح الاثنين استيقظنا منهكين. كان الشابان مقرفصين. لم يقم حميد بحركاته الرياضية. كان شاحباً، لكنه أقلنا تعباً. ربما يكون متعوداً على الحبس. شعرت برغبة في القيء. إذا تغوط احد الرفاق فإني حتماً سأقيء. حالتي تذكرني بظهيرة ذلك اليوم في مرفأ الصيادين.

فتح الباب ونادَى شرطي الحراسة على اسمي. حين وقفت شعرت بدوخة وتعب في ركبتي. ودعتهم رغم أني لم أكن واثقاً من تسريحي. تبعت الشرطي إلى الطابق الأعلى وأنا أجر حذائي بلا سيرين. كان مجرد خروجي من تلك الحجرة يعني لي نصف حريتي. أدخلني الشرطي إلى غرفة تنتصب وسطها آلة تصوير كبيرة. إنسحب الشرطي وأمرني المصور أن أجلس على المقعد المقابل لآلة التصوير. الغرفة دافئة. الحجرة التي خرجت منها تشبه ثلاجة. اقترب مني وسوى وضعي أمام الآلة. وقف وراءها وأمرني أن أنظر إلى عدستها ولا أتحرك. أخذ لي صورتين أخريين جانبيتين. لا بدّ أن يجعلوا لي ملفاً عندهم هنا.

سألني عن اسمي ثم أراني كيف أضع إصبعاً إثر إصبع في المدادية وكيف أطبع بصماتي في ورقة بيضاء مقواة. دخل شرطي سري وتكلم مع المصور المغربي. تارة يتكلمان بالفرنسية وتارة بالإسبانية. حين انتهى ألقى نظرة على ورقة مكتوبة وسألني إن كنت أعرف كيف أوقع اسمي. أجبته بالنفي. قال الشرطي السري بالإسبانية:

ـ كيف تطلب منه ذلك! إنه مثل معظم المغاربة.

قال له المصور بالإسبانية:

ـ هذا طبيعي.

أمرني المصور أن أطبع إبهامي في المدادية وأوقع في أسفل الورقة المكتوبة. لم أجرؤ أن أسأله عما هو مكتوب فيها، لكني قلت له بأنني لم أفعل شيئاً خطيراً. قال لي:

ـ هذا ليس شغلي. أهبط الآن عند الشرطي الذي صحبك إلى هنا.

سألني الشرطي السري بالإسبانية عن العمل الذي أمارسه. قلت له بالإسبانية:

ـ نادا (لا شيء).

قال:

ـ وبماذا تعيش إذا كنت لا تمارس أي عمل؟

ـ هكذا. (أضفت): إنني أمارس أي عمل أعثر عليه.

ـ إذهب الآن.

خرجت أجر حذائي. في الطابق الأسفل لم أجد شرطي الحراسة. ظللت واقفاً في الممر والباب مفتوح أمامي. أرَى الناس يمرون في الخارج. دخل رجلان باللباس المدني وتخطياني. لا بد أنهما شرطيان سريان.

خرج شرطي الحراسة من مكتب وسألني:

ـ هل أنتهى معك المصور؟

ـ نعم.

قادني إلى نفس المكتب الذي خرج منه. كان هناك اثنان آخران.

جعلوني أوقع بإبهامي ورقة أخرى مكتوبة. أعطيت اسمي لأحدهما وسلم لي نقودي وحزامي وسيري حذائي. فكرت: ماذا كتبوا أيضاً عني في هذه الورقة؟ في استطاعتهم أن يكتبوا عني ما يشاؤون ما دمت لا أستطيع أن أقرأ ما هو مكتوب في تلك الورقة. لا أجرؤ أن أطلب منهم أن يأتوا لي بمن يقرأها لي قبل أن أوقعها. قد يعيدونني إلى السجن إذا أنا طلبت منهم ذلك. قال لي شرطي الحراسة:

ـ إنصرف الآن.

خرجت من المكتب ناسياً تعبي وغثياني. عند الباب اصطدمت بشخص. اعتذرت له. دفعني فاصطدمت مع الجدار.

ـ شف قدامك يا هاد الحمار.

تخطاني وانحنيت لأعيد إلى قدمي الفردة التي افلتت. فكرت: لا يمكن أن يسب هكذا، في هذا المكان، سوَى الشرطة.

في الخارج، عقدت سيري حذائي وحزامي. كان يوماً بارداً ومشمساً. تنفست بعمق ومشيت.

في السوق الكبير دخلت مطعماً لبيع البيصر وأنا أفكر في النقود التي تركها لي القندوسي عند صاحب قهوة الرقاصة.

١٢

رنّ جرس المنبه. مددت يدي في الظلام وأوقفته. نهضت وأشعلت الضوء. كانت الخامسة صباحاً. النوم ما زال لذيذاً في عينيّ. بعد ساعة ستدخل الباخرة. نظرت إلى نعيمة النائمة بلا هموم. أكره العيش مع امرأة لا تشغل نفسها بشيء. لا عمل لها سوَى أن تفتح لي أو لغيري فخذيها. بوشتا تزوج فوزية. ربما تظن أنني أيضاً سأتزوجها. كلهن هكذا: لا يكاد الواحد يبدأ العيش مع إحداهن حتّى توقعه في فخ انتفاخ البطن. إنهن لا يتخذن أي احتياط عمداً. لكن ليس لدي ما أخسر. إذا وقعت في فخها فسأهجر هذه المدينة إلى مدينة أخرى وأتركها تسقط في فخها. لبست ثيابي وحملت قفة السلعة. أطفأ الضوء. خرجت بهدوء.

في الطابق الأسفل غسلت وجهي بماء بارد كالثلج. أيقظت الحارس بحذر. ضرب بيده في الهواء كعادته عندما يكون نائماً ويوقظه أحد، لأنه يشعر أنه دائماً مهاجم. نظر إليّ جاحظ العينين دون أن يتكلم.

ـ عبد السلام. أنا شكري. سأخرج. قم لتقفل الباب.
أرسل شهيقاً ثم نزل من فراشه متعباً. تقدمني وفتح الباب الخارجي. فاحت منه رائحة خمر. قال لي وأنا أخرج:

ـ الله يعاونك.

حييته ومضيت في الدرب الهادئ. صباح بنفسجي. لقد ابتلع الليل البؤس. المحظوظون لا يستيقظون في هذه الساعة للعمل. إنهم الآن كالنفايات في الأمعاء. توقفت في عقبة باب العصا وألقيت نظرة على البحر. إنه هائج قليلاً.

في مرفأ الميناء رأيت بوصوف واقفاً قدام كشك يتناول فنجاناً من البيصرة الساخنة. كان هناك عمال يفطرون وآخرون يدخنون الكيف والسجائر. حييته وطلبت فنجاناً لي. اتفقت معه على أن يعمل معي مقابل ثلاثة آلاف فرنك. قال:

ـ سمعت البارحة أن العنابر ستكون غاصة باليهود المهاجرين إلى فلسطين.

ـ الجنود الفرنسيون والداكاريون الذاهبون إلى الجزائر يهمونني أكثر. إنهم لا يساومون كثيراً في الأثمان. اليهود معظمهم تجار. حتى الذين ليسوا تجاراً يفهمون في التجارة.

ـ لكنهم يغادرون المغرب إلى الأبد ولا بد أن يشتروا بعض الهدايا من آخر مدينة مغربية يقلعون منها.

ـ سنرَى.

مشينا إلى المرفأ ونزلنا إلى الزورق. أخذ يجذف ببطء. تذكرت وهران وذلك الشيخ الذي كان يصرخ في بعتاب: «هيا! انتبه إلى اليمين أيها الريفي الكسول. النوم ما زال في عينيك. سأقول للمسيو سيجوندي أن يأخذك إلى زوجته لتساعدها في قشر البطاطا. أضرب البغلين جيداً. إنك لا تصلح إلاّ لقشر البطاطا وغسل الصحون...» في مثل هذه الساعة كنا نخرج إلى حقل الدوالي لنعمل. كان الشيخ

يثرثر: إن لم يشتمني فإنه يشتم سكة المحراث أو المقوم الذي تنزلق عليه قبضتاه أحياناً من شدة العرق وقبضتاي هما الأخريان تشدان بقوة على زمام البغلين حتَّى أحس كأن في راحتي أشواكاً تنغرز. لولا فعلي مع ذلك الغلام الجميل في الحقل لكنت الآن ما زلت في وهران. كنت هناك أتذكر وجه أمي في وجه خالتي. اليوم أدرك جيداً لماذا كانت تعاملني بلطف. لقد كانت بلا أطفال.

قال بوصوف:

ـ انظر، الباخرة تدخل الميناء.

توقف عن التجذيف. انتشل المجذاف ووضع عروته في القائم الآخر. أخذنا نجذف معاً. قال:

ـ الباخرة غاصة بالجنود.

عندما اقتربنا من الباخرة صاح جندي بالفرنسية:

ـ ايه، ماذا عندكما للبيع؟

أشرت للجنود أن ينتظروا. أخرج بوصوف لفة الحبل وهيأه في يده لرميه. صحت فيهم:

ـ أمسكوا الحبل.

امتدت بعض الأيدي لتلقف رأس الحبل المثقل بعدة عقد. رمَى بوصوف رأس الحبل بقوة. أمسكه جندي زنجي. قلت للسينيغالي بالفرنسية:

ـ اربط الحبل جيداً.

صاح بعض الجنود:

ـ هيا، اطلع.

بدأت أتسلق الحبل بخفة. كانت بعض الأصوات تصيح:

ـ ألي، كوراج، برافو!

ـ تري بيان!

ساعدني على القفز إلى سطح الباخرة جندي داكاري. كان بوصوف قد ربط القفة في ذيل الحبل عندما صعدت. بدأت أسحب القفة إلى الباخرة. سألني جندي سينيغالي:

ـ ماذا عندك للبيع أيها الرفيق؟

قلت له دون أن ألتفت إليه:

ـ ساعات سويسرية، شالات، مناديل يابانية وقداحات. ساعدني جندي فرنسي على إنزال القفة وقال:

ـ هيا، أرنا ما عندك.

أخرجت علبة الساعات وتركت الأشياء الأخرى في القفة. قلت لهم:

ـ هذه هي الساعات.

ـ كم هذه؟

ـ خمسة آلاف فرنك.

ـ أليست زائفة؟

ـ لا أبيع ساعات زائفة.

ـ ثلاثة آلاف.

ـ أربعة آلاف.

ـ لا: أعطيك ثلاثة.

ـ خذها، إنها لك.

فكرت: يكفي أن يشتري أحدهم ليصاب الآخرون بهوس الشراء. كانت الساعات تطير من يدي الواحدة تلو الأخرى وجيوبي تمتلىء بالأوراق المالية. عاد إليّ جندي نادم وقال لي:

ـ ردّ لي نقودي وهاك ساعتك.

فكرت: إذا انهزمت أمامه وأعدت له نقوده فيصاب بهوس الندم كل الذين اشتروا من عندي. قلت له:

ـ لماذا؟

ـ قالوا لي بأن ساعتك هذه زائفة.

ـ اسمع، إن الذي قال لك هذا لا يملك ثمناً لشراء مثل ساعتك الجميلة هذه.

ـ ألن ترد لي نقودي؟

ـ كن رجلاً. إنك اشتريتها باختيارك.

تصوبت عشرات العيون تجاهي بريبة. نحنح بعضهم. قال الجندي الفرنسي الأشقر:

ـ طيب، سأحتفظ بها.

انسحبت إلى عنابر اليهود. رائحة قيء ورطوبة. قالت امرأة يهودية بصوت متعب:

ـ ماذا تبيع أيها الولد؟

ـ شالات ومناديل يابانية.

تجمعت حولي يهوديات أخريات. قالت يهودية شابة:

ـ أرنا إذن ما في قفتك.

صاحت أخرَى بفرح إلى جانب أمها:

ـ ماما، كم هو جميل لون هذا الشال!

سألتني أمها عن ثمنه.

ـ ألف فرنك.

ـ سبعمائة.

إذا لم أسرع في البيع سأخسر كـل شيء. قال شيـخ ذو لحية رمـادية مدببة، بطنه بارزة:

ـ إن نسيج هذه الشالات رخيص. يكفي أن تغسل مرة واحدة لتفقد لونها.

التفتت إليه زوجته:

ـ اسكت أنت. هذه أشياء تخص النساء.

أضاف الشيخ:

ـ إنني أعرف جيداً هـذه البضاعـة التي يبيعها الهنـود هنا في طنجـة بالجملة.

فكرت: البيع والشراء دائماً صعب مع الشيوخ. إنهم يزعمـون، في

غرور، أنهم يعرفون كل شيء.

أخـذت النسـاء اليهـوديـات يتجمعن حـولي ويشـترين مني دون أن يأبهن لما يقوله ذلك الشيخ. سمعته يقول لهن: «إنكن حمقاوات. أنتن تشترين أرخص سلعة رأيتها...»

الألـوان تطير من يـدي وحموضـة الروائـح تمـلأ داخـلي بـالغثيـان. سمعت ارتطاماً قوياً. الباخرة تـرسو. قبضت ثمن آخـر شال وبـدأت أنسحب وسط صياحات النساء: «عد إلينا بمزيد من البضاعة».

عندما صعدت إلى السطح صاح جندي سينيغالي في ظهري من بعيد:

ـ ايه أنت! انتظرني هناك!

لا بـد أنه يـريد أن يـرد لي الساعـة التي اشتراهـا مني. رأيت حول رامي حلقة جنود. الملعون، الذي لا يصحو قط من السكر، يبيع لهم الساعات بنصف الثمن الذي بعت لهم به. هذه عادته. قلت له:

ـ أنت دائماً قواد.

قال:

ـ مع من أنت تتكلم؟

ـ مع استك.

ـ عندما نتقابل في المدينة سأريك من أكون.

ـ سأبصق لك في عين مؤخرتك.

اقـترب بوصـوف بسرعة من البـاخرة. ألقيت القفـة إلى الـزورق. انزلقت في الحبل. راحتاي تنسلخان. انقـطع الحبل وهـويت في وسط

الزورق. صاح بوصوف:

ـ تفو على هذا البيع والشراء. لقد انشق زورقي.

ـ الجندي السينيغالي، ابن القحبة، هو الذي قطع الحبل.

ـ تفو على خدمة الزب هذه!

ـ جذف بسرعة. سيقذفوننا بأي شيء. ليست هذه أول مرة. إني أعرف هؤلاء الجنود، أولاد الزنا.

صاح بوصوف:

ـ انتبه!

تفادينا زجاجة بيرة فارغة. صاح بوصوف:

ـ امسك أحد الألواح لنحتمي بها.

أمسكت لوحاً. سمعت زنجياً يشتمنا بصوت عال ويخنق أحدنا في الفراغ. إنه بلا شك يخنقني. تلقيت زجاجتين متتابعتين. صرخت:

ـ آي! يدي، يلعن دينهم!

رميت اللوح. طفا بعيداً. لحست جرحي. مضى وقت طويل لم أر فيه دمي يسيل بهذا الألم الحلو. طعمه ملح وسكر في فمي. بدأت أحس بوخزات مؤلمة في مؤخرتي المتنملة. تخلّى بوصوف عن التجذيف. كنا قد ابتعدنا عن الباخرة. وقف. قبض على أسفل بطنه وراح يصيح:

ـ خذوا، شدوا لي في هذا!

ـ كفى. أي جدوَى فيما تفعله الآن. إن التيار ضدنا.

أَخَذْنا نجذف معا. بعد لحظة قال:

ـ لكن ماذا فعلت لهم؟

ـ لا شيء. إن رامي هو سبب كل ما حدث.

ـ ماذا فعل؟

ـ إنه يخفض دائماً أثمان الساعات. سأبول له في استه عندما ألقاه في المدينة.

ـ ألم تتحدث معهم عن الحرب في المغرب والجزائر؟

ـ أبداً. قلت لك إن رامي هو السبب.

ـ ومع اليهود!

ـ قلت لك لم أتكلم عن السياسة مع النصارَى أو مع اليهود. هل تريدني أن أقول للفرنسيين والسينيغاليين ألا يذهبوا إلى الجزائر ولليهود ألا يهاجروا إلى فلسطين؟

التيار يجرفنا والريح تقوَى. انكسر مجذاف بوصوف. بقي في يده نصفه. قال:

ـ تفو! كل هذا من أجل الآلافك الثلاثة.

ـ ليست لومتي.

أخذ الماء ينصب في الزورق مع كل موجة قوية. قلت:

ـ إسمع، تكلف أنت بإفراغ الماء. أنا سأضع المجذاف في المؤخرة لأوجه الزورق في الإتجاه المناسب.

ـ سيجرفنا التيار إلى صخور المنار إذا لم نعرف كيف نسير معه.

ـ سنتدبر أمرنا عندما نقترب من الشاطىء.

ـ إن حياتي مرتبطة بهذا الزورق، وهو ليس زورقي.

ـ لن يجرفنا التيار أبعد من فيلا هارز.

ـ أنت ستريني في تيارات هذا البحر. إنك لا تعرف شيئاً عن هذا.
(أضاف): لكن قل لي، كم ستعوض لي إذا انكسر زورقي أو ضاع؟

ـ سنحاول أن نصل بسلام.

ـ أريد أن أعرف مسبقاً كم سأقبض.

ـ سأعطيك ضعف المبلغ الذي اتفقنا عليه إذا حدث فيه أي عطب.

ـ ستة آلاف.

ـ نعم.

ـ من أجل ستة آلاف...

ارتج الزورق بعنف. سقط إلى الخلف. قبضت على المجذاف وهويت على كتفه اليمنَى ثم على الكتف الأخرَى. صرخ:

ـ جبان! يلعن دينك.

ـ إذا لم تسكت سأقذفك إلى الماء.

ـ يلعن دينك. سترَى فيما بعد عندما نصل.

قبضت بيدي على أسفل بطني وقلت له:

ـ سترضع لي هذا.

كان منهزماً في المقدمة فوق المقعد. ففككت حزامي لأربط به المجذاف في مؤخرة الزورق. غافلني وضربني بنصف المجذاف الذي كان قدامه. تفاديت الضربة وسقطت الهراوة من يده. تخانقنا. صعدت له ضربة ركبة إلى أسفل بطنه، ثم دفعته إلى الوراء. أمسكت الهراوة لأهوِي بها عليه. أخذ يصرخ برعب:

ـ لا، أرجوك لا...

شحب لونه وجحظت عيناه من الرعب. قلت له:

ـ إذا لم تكف سأقذفك إلى الماء.

كان المجذاف الآخر يطفو بعيداً عنا. أمسكت الهراوة بيدي اليمنَى وبيدي الأخرى أخذت أفرغ الماء بعلبة من الصفيح. كان الزورق يدور ويدور في مكانه أحياناً. بعد لحظة رميت له العلبة وأمرته:

ـ إنها الآن نوبتك.

أمسك العلبة وطفق يفرغ الماء بهدوء. فكرت في نعيمة: ربما ما زالت تنام. إنها الآن تستريح وتحلم إذا لم تكن قد استيقظت. ما هو بيننا ليس هو الحب. هذا أكيد. العادة هي التي آلفتنا. أشك أني أحب لا مبالاتها. عندما ستصحو ستغتسل وتنزل إلى الطابق الأسفل في ثياب النوم لتثرثر مع الحارس أو مع صاحب المحل الكسيح. إذا أغراها أحد المقيمين في الفندق كي تنام معه فلا أظن أنها سترفض. قالت لي ذات مرة: «أنا لا أفهم الحب إلا في الزواج». قلت لها: «وأنا أخاف أن يموت حبي في الزواج». إن ما يجعلنا نستمر معاً هو أن كلانا ليس ملكاً للآخر كليا. هكذا يظل الشوق بيننا.

كنا نقترب من شاطىء فيلا هارز. الأمواج تعلو وتنكسر. الماء

عكر. كنت قد سمعت من الصيادين أن كلب البحر لا يقترب من المياه العكرة.

تهيأنا لنقفز. قفزت أنا الأول. سبحت تحت الماء حتّى كدت أختنق. رفعت رأسي فوق الماء والتفت ورائي. كان بوصوف يتبعني عن قرب. الأمواج ترفعني عاليا ثم أنحدر معها كأني أسقط في هاوية. فكرت: إنني الآن أحمل موتي فوق كتفي. عندما زرت صديقي مانولو في المستشفى الإسباني سمعته يقول في ألم: «خلصني من هذا العذاب يا رب..» كان مصاباً بمرض قاتل في رئتيه فأراد أن ينتحر، لكنه لم يستطع لأن موته كان محروساً بالراهبات. ابتلعت قليلاً من الماء. يجب ألا أفكر في شيء حتّى لا أغرق. ظللت لحظة أسبح كأني في بئر. استعدت تنفسي. سبرت الغور. لمست قدماي الرمل. وقفت. دفعتني موجة قوية. ابتلعت الماء. خرجت إلى الشاطىء. صحت في بوصوف:

ـ قف على قدميك. إن القد موجود هناك.

انبطحت على الرمل ليهدأ لهاثي. لم أدرِ إذا كان قد سمعني أم لا. ظل يسبح حتّى حافة الشاطىء. الزورق ينقذف بعيداً عنا.

عندما خرج ألقى نظرة على زورقه ثم نظر إليّ بغضب. لم يكن متعباً مثلي. نهضت وفكرت: أنه ينظر إلي الآن كأني خروفه الذي سيشويه. طز في الذي خرأه. إذا خشيته فحتما سأنهزم. سيسلبني كل شيء ويركب على ظهري إذا غلبني. سيتركني هنا عارياً ويذهب. اقترب مني. تراجعت إلى الوراء. قال:

ـ تعالَ لنرَ ما سيحدث للزورق.

مشَى أمامي وأنا خلفه على بعد خطوات منه. كان الزورق ينقذف

فوق الرمل. أخذنا نسحبه إلى الرمل بصعوبة، لم أفقد حذري منه. إنه أقوَى. قد يغافلني بضربة تطرحني تحت قدميه. عندما استقر الزورق فوق الرمال قال:

ـ لا بد أن شقوقاً قد حدثت فيه.

ـ أين هي؟ إني لا أرَى أية شقوق.

صرخ بغضب:

ـ أنا الذي أعرف زورقي.

ـ وأنا لست أعور. اسمع، قل لي ماذا تريد الآن؟

ـ هذا يساوي عشرة آلاف فرنك.

ـ لماذا عشرة آلاف؟

ـ أتعطيها أم لا؟

ـ سأعطيك ستة آلاف.

ـ إذن خذ.

تلقيت لكمة على جانب وجهي الأيسر. دارت النجوم في عينيّ. ابتعدت خطوات إلى الوراء لأسترد توازني. هاجمني مثل ثور. إذا تركته يقبض عليّ فسيهرس لي عظامي. ليت كانت معي شفرة حلاقة. كنت سأفعل له مثلما فعلت لكوميرو. راوغته. خبط في الفراغ. بدأ المطر يهض بغزارة. قال:

ـ ولد القحبة! أتحسب نفسك أنك هنا ستعاملني كما فعلت معي في الزورق بالمجذاف. هنا ستخرأ كل ما أكلته.

ظللت أراوغه بصمت وهو يطلب مني بحركات يديه وجسمه كله وصوته الصارخ أن أقترب منه أن كنت شجاعاً. لن أستهلك طاقتي. سأتركه يهجم. أخذ يضحك ويداه تلحان في الالتحام بي. قال:

ـ أنك جبان. من سينقذك مني الآن؟

بقيت صامتاً حذراً من أن يغافلني بهجوم يقبضني فيه. ارتمَى بسرعة على أسفل بطني. ضبطته من عنقه بيدي معاً. صعدت له بركبتي اليمنى ضربة تقليدية إلى وجهه. رفع وجهه. لم يندم. نطحته. أفلت. سددت له لكمتين على أنفه ثم واحدة على عينه اليسرَى. الأحمر ينزف من أنفه وأخمص قدمه اليمنَى. تقوس صارخاً ثم سقط قابضاً على قدمه. رأيت شظية زجاجة مغروسة في الرمل كخرشوفة شوكية. كان جرحه عميقاً حتَّى العظام. بان الشحم النازف، اقشعر جسدي. ثم لم أدر لماذا تبدل شعوري فراقني منظر الدم الذي ينزف ويمتصه الرمل والأمطار تغزر. بدا لي المطر مثل عروق تنزف. تذكرت منظر الكبش في الريف حينما ذبحوه ووضعوا طاسا تحت حنجرته الفائرة حتَّى امتلأ ثم شربته أمي المريضة. عددت ستة آلاف فرنك مبللّه. نفضتها ورميتها له قدامه. . استدرت ومشيت. سمعته يقول:

ـ عد يا ابن القحبة. سأبصق لك في مؤخرتك إذا أنت عدت.

فكرت أن أعود وأخنقه. المطر الغزير يهدىء أعصابي وأنا ماض وهو يسب.

عندما اقتربت من الطريق رأيت حافلة المنار آتية. رفعت يدي. توقفت. صعدت ودفعت للمحصل ورقة ألف فرنك مبللة. قال:

ـ مالك؟ هل حدث لك شيء؟

ـ لا بأس.

التفت إليّ كل ركاب الحافلة البدويين. كانوا سبعة أو ثمانية. نظرت من خلال النافذة إلى الشاطىء. رأيته يتجه نحو الزورق وهو يعرج.

نزلت من الحافلة في السوق الكبير. أثار منظري المبلل انتباه كثيرين من المارة. قالت امرأة لزميلتها تحت مظلة صغيرة مزوقة وهما ماشيتان ورائي:

ـ مسكين هذا الشاب!

قالت رفيقتها:

ـ لا بد أن تكون قد حدثت له مصيبة.

وجدت في قاعة الفندق الحارس يتبادل بعض النكات مع المرأة المنظفة. كانت تغسل الأرض. تركت الجفاف من يدها وسألاني معاً عما حدث لي. قلت لهما بأني تبللت بالمطر وصعدت إلى غرفتي. وجدت باب الغرفة مفتوحاً. الأشياء لم تعد في مكانها. القحبة بنت القحبة لعبت دورها معي. أخذت معها كل ما هو مهم: راديو ترانزيستور، المنبه، خمس ساعات يد ودزينة من القداحات.

هبطت إلى القاعة وسألت الحارس:

ـ ألم تر نعيمة حين خرجت؟

ـ كلا. هل حدث شيء؟

ـ لا شيء. أعتقد أنها ذهبت نهائياً دون أن تنتظرني لتقول لي وداعاً.

ـ ألم يحدث شيء؟

هززت له رأسي بالنفي. ثم عدت إلى غرفتي لأغير ملابسي وأيبس أوراقي المالية. لقد تركت لي ثيابي. ربما ستبدأ حياتها مع عشيق آخر في مكان ما كما كانت مع حميد الزيلاشي وقبل أن تكون معه. شيء قذر، لكن لا بد منه مع أمثالها.

١٣

في ذلك المساء، جئت إلى مقهى «سي موح» حاملاً معي مجلة مصرية مختصة في نشر أخبار الممثلين العرب وصورهم. كنت أشتري هذا النوع من المجلات لكي أتفرج على صور الممثلات بلباس الرقص الشرقي. أحياناً كنت أستمني على بعض صور الراقصات المثيرة للجنس. كان عبد المالك ـ أخو حميد ـ هو الذي يقرأ لي هذه المجلات حين يروق له مزاجه. أحياناً كنت أدفع ثمن فطوره أو غدائه. كان قد هجر دراسته في تطوان وجاء إلى طنجة ليتصعلك بعيداً عن أهله في أصيلة. أفضل رواد المقهى يكتب اسمه بصعوبة. كنا نعتبره أهم شخص يتردد على المقهى. يقرأ لنا الصحف والمجلات الشرقية العربية بصوت قوي وواضح. حين يكون يقرأ موضوعاً سياسياً هاماً عن أحدى الدول العربية يسكت صاحب المقهى الراديو ويصغي كل الرواد إلى ما يقرأه ويشرحه بأهتمام كبير. أحياناً كان ينتصب واقفاً ويترك الصحيفة أو المجلة من يده ويتحول شرحه إلى خطبة سياسية، يستعرض فيها ثقافته وذكاءه في تحليل الأحداث ويستشهد كثيراً بآيات من القرآن وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة (كان قد حفظ القرآن عن ظهر قلب في صباه). حين يطلب منه أحدهم شرحاً أكثر وضوحاً لاحدَى الأفكار يجد الفرصة ليتعالى علينا، نحن الأميين، الجهلاء، فيزداد شرحه غموضاً. كان دائماً على صواب في نظرنا. لم يكن بعض

الرواد يفرقون دائماً بين قوله وقول الله. كثيراً ما يقول أحدهم: صدق الله العظيم فيصحح له عبد المالك: «أستغفر الله العظيم، هذا ليس قول الله، إنما هو قولي..» أثناء حديثه غالباً ما كان أحدهم يقاطع كلامه مادا له «سبسيا» من الكيف. يتوقف لحظة عن الكلام ليدخن واقفاً ويرشف جرعة أو جرعتين من الشاي الأخضر ثم يستأنف خطبته المعجزة. عندما ينتهي يتلقى تهانيء الرواد ويكون صاحب المقهَى قد هيأ له كأساً من الشاي المنعنع وشطيرة من الخبز مزبدة. في بعض الليالي أدعوه للعشاء معي في أحد مطاعم السوق الداخلي ثم ندخل احدَى حاناته لنسكر أو نذهب مباشرة إلى الماخور لنبيت مع بغيين. (كانت لديه أيضاً نزعة غلامية مكبوتة إذ كثيراً ما حدثني عن جمال الذكورة الذي يفوق جمال الأنوثة). كنت فخوراً أن يصاحبني شخص مثقف مثله. كان يجيبني عن كل الأسئلة (لم اكن أدري ان كان على صواب أو على خطأ، فالله أعلم). كل ما أذكره هو أنني لم أكن أفهم منه إلاّ القليل.

كان جالساً معه في ذلك المساء كريدا والمساري والعجوز عفيونة، بائع الكيف ومعجون الحشيش في المقهَى. طلبت من السي موح كأس قهوة سوداء قوية واشتريت خمس بسيطات من الكيف. كنت مهموماً، وكانوا هم يتحدثون عن الملك فاروق ومحمد نجيب وسياسة جمال عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو. كنت راغباً في مشاركتهم الحديث. دخنت السبسي الأول. حشوت السبسي الثاني ومددته إلى كريدا الذي رفضه. قال لي عبد المالك وأنا أمد له السبسي:

ـ احتفظ بكيفك. عندنا كفاية من الكيف.

فكرت مع نفسي: وحين لا يكون عندك الكفاية منه إلى من تلجأ

أيها المفلس؟ ألا تطلب مني أن أشتري لك لفة منه؟ قال لي المساري:

ـ دعنا نتحدث بلا مضايقات.

أولاد القحاب. كلهم ضدي اليوم. أنهم يتكبرون. لست اذن في مستواهم في هذا اليوم. حتَّى عبد المالك يهينني هكذا. كنت أدخن السبسي تلو الآخر مفكراً في الانتقام. وضع السي موح كأس قهوتي فوق طاولتي. اشتريت من عفيونة قطعتين من المعجون وأكلتهما ثم شربت جرعات من قهوتي الساخنة حتَّى يكون المفعول جيداً. دخل كمال التركي سكران. دعوته أن يجلس معي فرفض. انحنى عليّ وهمس لي بالفرنسية:

ـ معي نصف زجاجة ويسكي. سأصعد إلى السطح. اتبعني إذا كنت راغباً أن تشربها معي.

وافقت بهزة من رأسي. رشفت من قهوتي عدة رشفات وتبعته حاملاً معي السبسي والكيف. وجدته يشرب من فم الزجاجة ناظراً إلى البحر الذي أتَى منه منذ شهور في باخرة تركية نزل منها ورفض أن يعود إليها. أعطيته علبة الكيف والسبسي ليعمر بنفسه. أعطاني الزجاجة. شربت جرعتين..

ـ كيف هي أحوالك؟

ـ ما زلت أنتظر أن ترسل لي أسرتي النقود لأعود إلى استانبول.

ـ والمركب الذي تركته، هل ستعود لتعمل فيه؟

ـ المراكب كثيرة، سأبحث عن مركب آخر.

ظللنا نشرب وندخن ونتكلم عن همومنا حتَّى فرغت الزجاجة.

سألته:

ـ ماذا ستفعل هذه الليلة؟

ـ لا أدري.

أخفى الزجاجة الفارغة تحت سترته وهبطنا. وجدنا عبد المالك واقفاً كعادته يعلق على الأخبار التي تذيعها اذاعة لندن بالعربية في المساء. كان كأس قهوتي والمجلة المصرية المصورة ما زالا فوق طاولتي. جلست وعرضت على كمال أن يشرب معي شيئاً. اعتذر قائلاً:

ـ لي موعد مع محمود المصري في مقهى دار الدباغ. (هذا أيضاً كان يقوم بنفس دور عبد المالك). سيسلف لي بعض النقود.

قال له السي موح:

ـ لا أريد السكارى في قهوتي.

قال له كمال بالعربية:

ـ السلام. السلام يا السي موح.

ضحكت. ودعني باشارة من يده وخرج. نظر إليّ عبد المالك غاضباً وجلس. قال له عفيونة:

ـ استمر في كلامك يا السي عبد المالك.

قال عبد المالك:

ـ كيف تريدني أن أستمر في الكلام والأولاد يضحكون؟

قلت له:

ـ أنا لست ولداً. أنت تتكلم عن محمد نجيب وجمال عبد الناصر كأنك تقابلهما كل يوم ويتحدثان إليك عن أسرارهما السياسية. من

أين تعرف كل هذه الأخبار عنهما؟

فقد السيطرة على أعصابه وقال غاضباً:

ـ أسكت يا هذا الأمي. أنك لا تعرف حتىً كيف تكتب اسمك وتريد أن تحشر نفسك في الموضوع.

قال له المساري:

ـ لا تهتم به. أنه سكران.

هذه فرصتي لأهين عبد المالك وأنصاره كما أهانني هو وجماعته. فكرت في كلمات أهينه بها. لم أعرف ما أقوله له. رأسي ثقيل بالكيف والمعجون والويسكي. سأطلب منه أن نخرج لنتضارب. هذه هي أسهل وسيلة لا تتطلب أي مجهود في التفكير. قلت له:

ـ أنا أمي وجاهل، لكنك أنت كذاب. أفضل لي أن أكون أمياً وجاهلاً من أن أكون كذاباً مثلك.

أحسست أني انتصرت عليه. قال:

ـ أمشي تقود النصارَى في البورديل.

قلت له:

ـ إذا كانت عندك أخت جميلة فقل لها أن تجيئني لأقودها.

قال لي السي موح بغضب:

ـ أنا لا أريد الصداع في قهوتي. اخرجا برّا وتضاربا.

قلت له:

ـ لماذا تخاطبني أنا وحدي؟ أم أنه هو يعرف كيف يتكلم وأنا لا أعرف؟

قال لي كريدا:

ـ العن الشيطان.

قلت له:

ـ الشيطان هو الانسان.

ثم قلت لعبد المالك:

ـ اسمع، لنخرج إلى الشارع لأريك من هو الأمي والقواد.

نهض بسرعة واتجه إليّ. اعترضه كريدا والمساري وعفيونة. دفعهم عنه. قمت وأمسكت كأس قهوتي وقذفت محتواه على وجهه. غطّى وجهه بيديه وأمسكني شخص من ساعدي من الخلف. صرخت في وجهه:

ـ لنخرج برّا إذا كنت رجلاً.

أطلقني الشخص الذي أمسكني من ساعدي وقال لي كريدا:

ـ كن عاقلاً.

قلت له:

ـ ماذا يحسب نفسه هنا؟ أنه مجرد طالب هارب من دراسته وجاء إلى طنجة ليتسكع.

عدت إلى مكاني وجلس معي عفيونة. عمر السبسي وأشعله لي ورجاني أن أهدأ.

صعد كريدا والمساري إلى السطح. دخنت. سعلت. من خلال بعض التعليقات التي سمعتها من الرواد أدركت أن بعضهم يتحدثون لصالحي. لا بد اذن أن يكونوا قد سبق لهم أن شعروا بنفس المشاعر العدوانية ضد عبد المالك. هبطوا من السطح. كان وجه عبد المالك يبدو كما لو أنه غسله بماء ساخن. اقترب مني كريدا وقال:

ـ أطلب منك أن تتصالح معه.

قال عفيونة:

ـ نعم، قم وتصالح معه من أجلنا.

نهضت معهما. دفعونا لنتعانق. أردت أن أرجع إلى مكاني. لكنهم رحبوا بي كي أجلس معهم. دخل كمال يترنح. حول عينه اليسرى هالة بنفسجية. قال لي:

ـ هاجمني اثنان في بورديل بن شرقي.

ـ لماذا؟

ـ لقد اعتبروني نصرانياً. لم يصدقوا أنني مسلم، قالا لي: «كيف تكون مسلماً وأنت لا تتكلم العربية»؟

ـ لكن لماذا كل هذا؟

ـ كنت أريد أن أدخل مع فتاة مغربية لكي أنام معها.

ـ أجلس معنا.

ـ أفضل تعال أنت معي. سنذهب إلى السوق الداخلي لنشرب قليلاً من النبيذ. لقد سلف لي محمود المصري بعض النقود.

اعتذرت لجماعة عبد المالك وخرجت مع كمال.

دخلنا دار السعدية الكحلا. قلت له:

ـ أعرف جيداً صاحبة الدار وفتياتها. لاتخش من شيء.

استقبلتنا خديجة السريفية. أدخلتنا حجرة مفروشة بأثاث مغربي. سألتني عما نريده. جاءت صاحبة الدار وقدمت لها كمال. قال لها بالعربية:

ـ السلام يا مدام.

سألتني:

ـ هل صاحبك مسلم؟

ـ طبعاً هو مسلم.

ـ يتكلم بالعربية؟

ـ كلا. يعرف فقط بعض الكلمات. إنه تركي.

تساءلت:

ـ كيف يكون مسلماً وهو لا يتكلم العربية؟

شرحت لها أن هناك بعض الشعوب لا تتكلم العربية، لكنها مسلمة مثلنا. قال لها كمال بالعربية:

ـ أنا مسلم. الله ومحمد رسول الله.

ابتسمت السعدية. قالت لنا:

ـ أجلسا. هل تريدان أن تبقَى معكما خديجة؟

أحلت السؤال على كمال. قال:

ـ طبعاً ستبقَى. وقل لها أن تأتينا بفتاة أخرى جميلة مثلها.

طلبنا زجاجة كونياك وزجاجة صودا. طلبت من خديجة أن تختار لنا فتاة أخرى. خرجت وسألت كمال:

ـ أتعجبك حقيقة أم نختار غيرها؟ هناك كثيرات أجمل منها إذا شئت.

ـ إنها رائعة. الفتيات المغربيات يشبهن كثيراً الفتيات التركيات.

جاءتنا خديجة حاملة صينية الشراب تتبعها صفية القصرية. كنت أعرفها. قالت لي:

ـ أهلاً بالغزال.

قدمت لها كمال وجلست إلى جانبه. قالت لي خديجة: ثمن الشراب مائة وخمس وعشرون بسيطة.

قلت لها:

ـ وإذا أضفنا ثمن المبيت معكما أنت وصفية؟

قالت باسمة ناظرة إلى صفية:

ـ ثلاثمائة بسيطة.

أخرج كمال ورقتين من فئة مائة بسيطة. طلبت من خديجة أن تنادي على للا السعدية. قالت:

ـ هات الفلوس. ألا تثق بي؟

ـ ليس الأمر كذلك. إنني أريد أن أتفاهم مع للا السعدية.

قالت ضاحكة:

ـ فهمت. أنت تعرف شغلك معها.

رجوتها أن تجلس وخرجت. كانت لـلا السعدية جالسة في أقصى وسط الدار. دفعت لها مائتي وخمسين بسيطة. أفهمتني أننا سننام كلنا في غرفة واحدة.

وجدت كمال يبوس صفية ماسكاً وجهها بين يديه كأنه يخاف أن تفلت منه. ربما سأنام أنا أيضاً ذات يوم مع فتاة تركية. لففت خمسين بسيطة ودسستها في يد خديجة:

ـ لقد تفاهمت مع صاحبة الدار.

دستها في صدرها وباستني على خدي.

كنت قد غفوت عندما هزتني خديجة:

ـ هل تسمع؟ صفية تقول بأن صاحبك التركي يلحس لها شيئها.

ـ ليفعل معها ما يشاء.

ـ ألم تقل بأنه مسلم؟

ـ وماذا في ذلك؟

قالت صفية:

ـ اللحس باللسان أفضل.

كنت سأستيقظ في السادسة صباحاً لأذهب إلى الميناء. رجوت خديجة أن تتركني أنام. أكدت لي أنها ستوقظني في أي وقت أشاء. ضمتني إليها وأدخلت فخذيها بين فخذي وبدأت تحك فرجها مع

ركبتي اليمنى المثنية. إنها تتخيل فخذي كأنها شيء الحصان. صفية تتنهَّد وخديجة تناضل مع ركبتي. تشد شعري بقوة. دفعت فرجها عدة مرات في ركبتي ثم تراخت. كمال وصفية يضحكان. انقلبت خديجة ونامت على بطنها. مددت يدي ونزهتها فوقها. كانت ما زالت تحك ببطء مع الفراش. ركبت على ظهرها لأسافر. حاولت أن تسقطني من فوق سنمها. تمسكت جيداً بشعرها حتىًّ لا أسقط في الفراغ. كانت ناقة تطير فوق صحراء. السقوط من فوقها هو ضياعي في صحراء مجهولة.

في الصباح، بعد صعودي من الميناء، ذهبت إلى مكتبة في واد أحرضان واشتريت كتاباً لتعلم مبادىء القراءة والكتابة بالعربية.

وجدت عبد المالك في المقهى. قدم لي أخاه حسن الذي جاء من العرائش ليزوره. اعتذرت له عما حدث لي معه أمس. قال:

ـ انس ما حدث. أنا أيضاً كنت متوتراً.

جلست معهما. أريت لعبد المالك الكتاب الذي اشتريته وقلت له:

ـ لا بد لي من أن أتعلم القراءة والكتابة. أخوك حميد كان قد علمني في مخفر الشرطة الجنائية بعض الحروف وقال لي بأن عندي استعداداً للتعلم.

ـ ولماذا لا؟

قال لي أخوه حسن:

ـ هل تريد أن تذهب إلى العرائش لتدرس هناك؟

قلت له بدهشة:

ـ أنا؟ كيف يمكن لي ذلك. أن لي عشرين سنة، ولا أعرف حتّى كيف أوقع اسمي.

ـ لا يهم. أنا أعرف هناك مدير مدرسة. سأكتب لك رسالة وصية لتحملها معك إليه. أنا متأكد أنه سيقبلك. إنه يعطف على الغرباء الذين يرغبون في الدراسة بجد. (أضاف): لو لم أكن ذاهباً إلى تطوان لتسوية مشكل لي هناك مع النائب الإقليمي لصحبتني وقدمتك بنفسي إلى مدير تلك المدرسة. إنه صديقي.

بعد لحظة قال لي:

ـ اذهب وأشر ورقة وظرفاً لأكتب لك الرسالة.

خرجت دون أن أصدق ما قاله لي. اشتريت ما طلبه وعدت بسرعة. أخذ مني الورقة ووضعها فوق جريدة عربية وأخذ يكتب بخط جميل. كان يكتب ويتوقف ليدخن معنا الكيف. حينما انتهى من كتابتها وضعها في الظرف وأقفله. أعطاني الرسالة ووضعتها في جيب كبوطي. سألته:

ـ متى يمكن لي أن أسافر إلى العرائش؟

ـ متى شئت. لكن حاول أن تذهب في هذه الأيام.

كانت حوالي الثانية عشرة زوالاً حينما ودعنا حسن ليسافر إلى تطوان. أكد عليّ وهو يصافحني:

ـ سنلتقي هناك بعد ثلاثة أو أربعة أيام. لابد أن تذهب.

خرج وقال لي عبد المالك:

ـ أنا سأذهب إلى مقبرة بوعرقية.

ـ لماذا؟

ـ لقد كلفني هنا في المقهى بعض الأخوان لأقرأ ما تيسر من القرآن الكريم على قبور عائلاتهم.

ـ سأصحبك. (أضفت): لي أخ مدفون هناك، هل يمكن لك أن تقرأ على روحه سورة؟

ـ أخوك؟

ـ نعم، لي أخ هناك.

في الطريق سألته:

ـ ماذا حدث لأخيك حسن؟

ـ لقد ارتكب حماقة: طردوه من المعهد في العرائش لأنهم وجدوه يشرب الخمر ويدخن الكيف في غرفة داخل مسجد يسمح للطلبة الغرباء أن يقيموا فيها مجاناً. (أضاف): إنه دائماً يقترف مثل هذه الحماقات.

في السوق الكبير، اشتريت باقة من الزهور وعند باب المقبرة اشتريت باقة من الريحان. وجدنا هناك بعض حفظة القرآن يقرأون سوراً على بعض القبور وزواراً يترحمون على موتاهم. كنا نتمشّى بين القبور عندما سألته:

ـ هل تعرف مكان كل القبور التي ستقرأ عليها السور؟

ـ كلا. المهم هو النية. لا يهم أن أقف قدام قبر معين لأقرأ رغم أني أعرف بعضها. وأنت أين قبر أخيك؟

نظرت نحو السور الذي دفن قربه أخي وقلت له:

ـ هناك. لا يمكن العثور عليه. إننا لم نبن له قبراً قبل أن نرحل إلى تـطوان. كنا فقراء.

ـ سأقرأ عليه سورة ياسين.

توقف فوق ربوة وراح يقرأ على أهل الـرفاق الـذين كلفوه. عنـدما انتهَى توجهنا نحو المكان الذي دفن فيه قبر أخي. قلت له:

ـ هنا. قرب هذا المكان.

أخذ يقرأ. أثناء قراءته كنت أنثر الزهور والـريحان عـلى بعض القبور وعلى الأرض غير المقبرة بعد. كان مدفـوناً هنـاك. ربما تحت قـدمي أو تحت قدمي عبد المالك أو في مكـان ما. فجـأة فكرت. لكن لمـاذا هذه القراءة على قبر أخي المجهول؟ إنه لم يذنب. لم يعش سوَى مرضـه ثم قتله أبي. تذكرت قول الشيخ الذي دفنه: «أخوك الآن مع الملائكة».

أخي صار ملاكاً. وأنا؟ سأكون شيطاناً، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين.

لقد فاتني أن أكون ملاكاً.